بلا بوش

عبد الرحمن الهويش

الكتاب : بلا بـوش (رواية)

المؤلف : عبد الرحمن الهويش

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٧٦١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 186 - 4

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



عبدالرحمن الهويش

بلابوش

رواية

كل ما ورد من أسماء ضمن أحداث الرواية

كان مجرد خيال ولا تمت للواقع بأية صلة.

الأب (شلش المرهون)

(١)

احتضنتني بقوة، لفَّتْ ذراعاها البضان الممتلئتان حول ظهري، شعرت بها تختلط بي، تضارسينا تتداخل، أجزاؤها تندمج بأجزائي، إنها تشدني إليها بقوة، تتداخل بين ثناياي، شوقي إلى لياليها عارم، أخفيته طويلاً لكنه ينساب مثل خرير ماء طال إهماله، وتجمع بين جدران بالون رقيق، لن يوقفه شيء ساعة اندلاقه حتى تنزل آخر قطراته.

ـ جواهر...

ناديتُها كما لو أنها كانت بعيدة، لم تجبني.. أردت أن أكرِّر مناداتها، لكنني تذكرتُ، صحتُ :

ـ هنادي...

كان هذا اسم شهرتها الذي تحبه، وهو اسمها الذي يناديها به معظم من عرفها؛ شأنها شأن بقية الغجر؛ أما اسمها الحقيقي الذي سُمِّيْت به بعد ولادتها فلا يعرفه سوى أهلها، وقلة ممن يتعلقون بهم فترة طويلة (شأني أنا معهم)، تجعلهم يعرفون خصوصياتهم التي لا يبوحون بها بسهولة.

ـ يا عيون هنادي...

أجابتني بغنج وتأوه يطفح بالاشتياق.
ـ ما الذي ذكَّرك بي ؟.. ألم تنسني؟.. كنت أعتقد أنكم معشر الغجر لا تعشقون أبدًا، وإن عشقتم فسرعان ما تنحرون عشقكم على مذبح الحياة، لتستبدلوه بعشق آخر، وهوى جديد يمكنه تلبية متطلباتكم اليومية الصاخبة... اعتقدتُ أنكم مجبولون على الحرية، لا تتبعون أحدًا وإن كان حبيبًا.

- ......

ـ سنين طويلة مرَّت.. أذكر جيدًا أوقاتي الطويلة التي قضيتها بينكم، كنتُ أستعجل الذهاب إليكم حالما تسنح لي الفرصة.. المسافة بين وحدتي العسكرية وقراكم المنتشرة هناك تقترب يومًا بعد آخر.. كل شيء كان جميلاً... صحيح أن الحرب كانت مستعرة على الحدود، إلا أننا كنا بعيدين... أقراني من الجنود يقاتلون على الحدود ليدافعوا عن الحرية، وكنت أنا عندكم أرفل بالحرية.. والحب.

ـ ضمني إليك... ضمني أكثر...

سحبتني إليها بقوة، سقطنا، تدحرجنا على الأرض، أردت أن أقول لها أن تكف، أن تخفض صوتها فقد تذكرتُ الآن؛ تذكرتُ ابنتي التي كنت قد نسيتها، أو أن فرحة لقائي بجواهر (هنادي) قد أنستني إياها، هي ترقد في الغرفة المجاورة لغرفتي... تدحرجنا ملتصقين ببعضنا، ازدادت سرعة تقلبنا، علا الصوت وانتشرت الجلبة، أردت أن نتوقف، أن لا تشعر ابنتي فتراني على هذا الحال.. أصرَّتْ والتصقتْ بي أكثر... شعرتُ أننا نتدحرج من الأعالي

صوب الأرض، هوينا في منحدر خارج غرفتي، تهاوينا ننتظر اصطدامنا بالأرض، لم يطل الوقت، وفي لحظة اصطدامنا غشينا صوت انفجار عظيم زلزل الأرض تحتنا.. وثبتُ واقفًا لأجدني مرميًا على أرض الغرفة، صياح عنيف يغشاني، ونيران الموت تنطلق في كل الاتجاهات.. لحظات قصيرة كافية لأعي ما يدور حولي، جنود المحتل في الشارع الملامس لداري تلعن حظها، ومن تجرأ ليعترض دوريتهم بقنبلة قد تكون أصابت أحدًا منهم.

تذكرتُ ابنتي (أفكار).. ركضتُ مسرعًا إلى غرفتها، كم تبتعد المسافات بنا حين يسابقنا الموت، وكم تتكتف أرجلنا وأيدينا، وتخور قوانا، أية هيبة لك أيها الموت لنخافك هكذا...

وصلت إليها متأخرًا، كانت ترتجف من هول الانفجار، احتضنتُها وأخذتها مسرعًا إلى غرفة المعيشة وسط الدار، حاولتُ أن أُهدِّئ من روعها، قلتُ لها : (لا تخافي يا ابنتي، فأنا معكِ)...

كانت عيناها تحدِّق بي وكأنها تسمع كلامي فيهما، لطمني إحساسي بفجاجة ما أقول، وساورني اعتقادٌ أنها تستهزئ بكلامي هذا.. كانت عيونها هذه المرة هي التي تتكلم، فقالت.. وقالت.. وقالت، قالت: لو أنك كنت تريد حمايتي ما تركتهم يدخلون الوطن.. لو أنك كنت تخاف عليَّ منهم ما سمحتَ لهم؛ وأنت العسكري المحترف...أتراك كنت تصدِّق دعوى حريتهم، وأهدافهم النبيلة، وديموقراطيتهم؟... وهل في لغة السلاح من معنى ديموقراطي؟!. يا أبتي إن وجودك معي يزيدني خوفًا؛ خوفًا عليك منهم، فعدوك إن تفوق عليك في

ساحة المعركة ولم يقتلك فيها، فهو إنما يخطط ليتفنن في قتلك...هو لا يريدك أن تموت ميتة شريفة...إنه يريد أن يذلك قبل أن يقتلك...لذا هو يؤجِّل قتلك... يريد أن يكون مكان وساعة نحرك وفق اختياره، وبهوادة لتتعذب..لا على عجالة من أمره، ولا في ساحة يرضيك فيها أن تكون منطقة قتلك.

كان صياح الجنود لازال يُسمع هنا وهناك، يختلط بأصوات هدير محركات جاءت مسرعة لتنقذ إصابات رجوت في قرارة نفسي أن لا تكون قد ألمَّتْ بهم، يا آه كيف يروِّض الإنسان على الهوان رويدًا رويدا.

اقتربتْ عقارب الساعة من الرابعة صباحًا، قلَّت أصواتهم حتى اختفت، وذهبوا مبتعدين، طلبت من ابنتي أن تنقل أفرشتنا إلى صالة المعيشة، فليس من المفترض أن أدعها تنام لوحدها، كنت أراها لا تزال صغيرة، مع أنها دخلت عامها الرابع والعشرين من شهرين، ماتت أمها منذ ثلاث سنوات بعد إصابتها بمرض السرطان، هي جميلة وذكية، ومتعلمة، لكنها وحيدة، صحيح أنني معها وأنها أصبحت حياتي كلها، إلا أنني لطالما جفلت من فكرة بقاءها وحيدة إن أنا غابت عيني عنها.

أكملت (أفكار) فراشي فتمددتُ عليه، بينما فرشتْ لنفسها فراشًا في الجهة المقابلة.

عدتُ لتذكر حلمي، بدأتُ أستعيد لحظاته، تساءلتُ مع نفسي: (ترى ما الذي جاء بها إلى مخيلتي...)، لقد نسيت كل هذه التفاصيل منذ فترة طويلة، لم يعد يهمني شيء غير ابنتي، ولا شيء يشغلني في نهاري سوى الزمن المتوقف الذي أحاول أن أصلحه وأن أجعله يعود ليمشي ويمشي في ورشتي التي نبتت في واجهة داري، ساعات صغيرة وأُخر كبيرة، والزمن فيها واحد، كانت ترد إلَي وقد توقفت دورة الزمن فيها فأحاول أن أصلحها أو أصلح قراءتها للزمن، فهيهات لي أن أصلح هذا الزمن، فخراب الزمن لا يمكن إصلاحه في الورش، وبأدوات التصليح... رحم الله والدي، كان كلما رأى تصرفًا لا يرضيه، أو أمرًا لا يعجبه، قال: (إيه.. زمن البلابوش)... سألته مرة عن معنى تلك الكلمة، قال: (عندما يقل حياء الناس، وينتشر الخراب، وعندما يتباهى الناس بنكوص المبادئ والأخلاق، فذاك هو البلابوش).

حاولتُ أن أغفو من جديد، إلا أن صورة (هنادي) اختبأتْ تحت أجفاني... عدت بذاكرتي بعيدًا؛ إلى أيام الحرب؛ حرب الثمان سنوات، كل شيء كان يدفع لإدامة زخم الحرب، هدف الجميع تحقيق النصر على العدو وعدم السماح له باحتلال الأرض، فخسارتها كانت تعني خسارة كل شيء، كانت النفس حاضرةً لتُدفع ثمنًا إن استلزم الأمر، الموت هو الشعار السائد في كل الأرجاء، كان شعوري أن الموت يحيط بنا ولا استثناء له في عموم الأرض، سوى في تلك البقعة التي تتوزع عليها بيوتات قرية (جواهر)

الفقيرة، كانت تشعرني عندما أكون فيها أنني خارج سيطرة الموت، كل شيء فيها كان يعجُّ بالحياة، تشعرك بالضياع، الضياع الذي لن يجدك الموت فيه، بالحرية، باللامسوؤلية، أليست المسؤولية هي أولى حلقات العبودية.. أن تكون موجودًا هناك؛ أو لا تكون.. فهو أمر يعنيك وحدك، وضياعك يعني حريتك... ترى أين أخذكم الحال، وهل لازلتم في حريتكم ترفلون.. ثلاث سنين عجاف مرَّتْ.. هل بقيتم أحياء، أم أن دورة الزمان دارت عليكم... ترى كيف سيكون بلابوشكم.

- هم يعيشون لأنفسهم، يعيشون ليومهم... قلت لنفسي.

- من يدري قد يأتي يوم نلتقي فيه من جديد....

أدرتُ رأسي لأتأكد من نوم ابنتي بعد أن قررّتُ أن أكمل نومتي علّي أحظى بإغفاءة قبل مجيء (سامي) العامل معي في ورشتي، ليصحبني كما في كل صباح لنبدأ يومًا جديدًا، هو يقف في المحل بينما أذهب إلى السوق لأشتري ما نقص من مواد واحضرها...

كانت الساعة اقتربت من الخامسة صباحًا... سحبتُ دثاري فوقي، أغمضتُ عيني، فتناهى إلى سمعي هدير يتعالى، كان ينذر بعودة الجند من جديد، الصوت يقترب مسرعًا، جفلت وتوقعت أمرًا دعوت الله أن لا يكون هو، الأصوات عادت إلى مكانها جوار داري، جلستُ معدلاً ظهري، كانت عيون (أفكار) وجلةً تنظر إليَّ متسائلةً، حاولتُ جاهدا اخفاء وجلي عنها.. هدير المحركات يغطي المكان، صياحهم علا واقترب كثيرًا، انفجارٌ عالٍ يهتز له أرجاء

بيتي، الأفكار تتسارع.. لقد حانت ساعة حفلهم، وحان وقت ما أجل من أمر في ساحة المعركة أول مجيئهم... نسف الجنود الباب، دخلوا راكضين يصيحون، كلمات غير مفهومة.. قفزتُ إلى ابنتي، احتضنتها بين يدي محاولاً حمايتها.. وصل الجنود إلينا بعد تحطيم الأبواب، وفوهات مدافعهم تكاد تلامس وجوهنا، صياح كثير وكلام غير مفهوم.. وضعتُ نفسي بينهم وبين ابنتي، جروني من بين يديها وهي تستميت لتواصل إمساكها بي، أفلتوني من بين يديها وهي تصيح وتبكي، أوقفوني على أرجلي وجروني إلى سيارة عسكرية متوقفة في الشارع، أصعدوني داخلها بعد أن قيدوا يدي، وغطوا وجهي بغطاء سميك يمنع رؤيتي، ثم قلبوا كيسًا فوق رأسي.

• • • •

الأب (شلش المرهون)

(٢)

بدأتْ السيارة بالحركة، صياح الجند يتعالى، لكنة كلامهم مستعجلة؛ حاولتُ ملاحقتها، إلا أن محاولتي فشلت في فهم ما يقولون، هكذا هم الأمريكان: السرعة ديدنهم، يتكلمون بسرعة ويبتلعون قسمًا من حروف الإنكليز.. يأكلون بسرعة.. يسافرون بسرعة.. ويفكرون بسرعة، إلا أنهم؛ وبالضد من مصلحتنا؛ ينفِّذون أفكارهم ببطء شديد. هذه هي سنتهم الرابعة في بلادنا، ولا زالت أفكارهم قيد التنفيذ... يقولون إنهم يخططون لجعل بلدنا نموذجًا يُحتذى به في المنطقة... أي أنموذج هذا الذي زهقت من أجله مئات الألوف من الأرواح... واستلزم إيجاده كل هذه الآلة العسكرية المدمرة.. يريدون أن يصنعوا منا (سوبر دولة)، فهم مولعون بهذه الكلمة التي ترتكز للخيال أكثر منها للحقيقة.

جاءونا محررين، هم يقولون... وهل تحتاج الحرية إلى كل هذا القتل والتدمير...والقيود، آآه من القيود التي تقتل الحرية... ترى هل يعون الحرية التي نبتغيها، وهل حريتنا تشبه حريتهم... وهل عرفنا نحن معنى الحرية؟... (لعنة الله عليكم وعلى حريتكم).

"أفكار" يا ابنتي العزيزة: اليوم فاصل بين الأمس والغد.. لن يكون هناك تشابه على الإطلاق.. كل ما قبل اليوم يختلف عن ما بعده.. إنها عتبة جديدة، وهل الحياة سوى عتبات نمر بها الواحدة بعد الأخرى، حتى نصل العتبة الأخيرة.. إنه يومٌ أشبه بالموت، وعلينا أن نتقبله.. ما دمنا نتقبل الموت، فاصبري... إن عزائي في ما نحن فيه أن جدتك وأعمامك أحياء ليتكفلوا بكِ...ريثما أدفع ثمن معركة أجل.

تمر الحياة عجلى بينما نبذر ساعاتها في ما لا معنى له، وحين نشعر أن فراقها قد حان، نسترجع تلك الساعات لنجد أنها كانت قصيرة جدًا قياسًا بأفراحها ومسراتها، وحريتنا في فعل ما كنا ننوي فعلاً أن نقوم به خلالها.

لقد توفرت لي الحرية مراتٍ ومراتٍ، لكني لم أجرؤ على فعل ما كان عليَّ أن أفعله... ألهذا نخاف الحرية؟.. ألأنها تجبرنا على فعل ما يتوجب علينا فعله، أم لأنها تكشف لنا أن أحلامنا هي ليست سوى أحلام غير قابلة للتطبيق، ولا يمكنها أبدًا أن تكون واقعًا؟.

كانت تتمايل راكضة من جهة إلى أخرى، تراءت لي حينها فرسًا مذعورة تهرب من أيدٍ تنوي أن تربطها، عينان كبيرتان مفتوحتان على وسعهما، متحفزتان، لا تثبتان على صورة، وشعرها القافز حتى ردفيها يتشظى بسواده المتفحم، صفقت لها كثيرًا، ورقصت معها، رميتُ فوق رأسها كل ما تحمله جيوبي، طوقتها بيدي، وهي

تدور وتدور كأنها كتلة طين على عتلة دوارة، وأنا نحات أضغط بيدي على تضاريسها ليتشكل منها تمثالا بالوجه الذي أريد.

جاءتني بعد أن أنهت رقصتها، جلست قربي ثم قالت:

ـ يبدوا أنك جديد...

ـ نعم جديد، من المعسكر الجديد الذي يفصلكم عن الحدود... أجبتُ مؤشرًا بيدي صوب المعسكر الذي انتقلتْ إليه وحدتي قبل أيام، ويبعد مسافة ساعة، أو أكثر بقليل عن قريتها.

ـ رميتَ كل نقودك... ماذا تريد؟.

ـ أريدكِ راضية.. وأن أكون قريبًا منكِ... أشعر بالحرية وأنا قُربك.

ـ الحرية، هاهاهاهاي.. لكن ثمن الحرية غالٍ، وقد يتعبك قربي منك، وقد لا تستطيع مجاراتي.. فمطالبي كبيرة وحاجاتي متعددة... و..

ـ سيكون تعبك راحتي، ومجاراتك منافسة حياتي.. وستكون مطالبك مطالبي وحاجاتك ضرورات لابد من إكمالها.

ـ ستتعب.. كثر مثلك قالوا، وحاولوا.. لكنهم في النهاية كسلوا وهانوا ثم ارتضوا بغيري وركنوا إليهن... النساء كُثر هنا؛ يمكنك أن تجد غير التي ترفضك، وأن تستبدل من يعلو طلبها.

ـ لكنني أردتكِ أنتِ... أنت لا غيرك.

كان كلامها ينم عن تعلم وعن ثقافة، قلتُ لها:

- تبدين وكأنك على مستوى من التعليم... والثقافة.

ردَّت ضاحكة :

- أنا متعلمة، ومثقفة.. وصلتُ بدراستي نهاية الثانوية.. لم يسبق لبنت من الغجر أن وصلته... كنتُ أريد أن أكون مختلفة، وأن أعيش جوًا آخر غير هذا الجو الذي أعيشه.. لكنني اكتشفتُ أن هذا الجو أصدق من غيره؛ وأوضح... وبدأت ثقافتي تتكدس.. كل من التقيت به كان له مستوى من الثقافة.. لقد التقيتُ بأعمدة قوم، ورؤساء، ووزراء، وأدباء، وضباط كبار، وأساتذة جامعات، وجُهَّال... وتعلمتُ منهم كلهم؛ حتى الجُهَّال؛ وتعلمت أن أكلِّم كل واحد منهم حسب مستواه.

ضحكتُ، قلت لها:

- ومن أي مستوى تراني؟...

قالت:

- مستواك من مستوى كلامي معك...ألم تقل إنه ينم عن تعلم، وعن ثقافة عالية...

قلتُ مضيفًا :

- وفلسفة..

وضحكنا سوية.

توقفتْ السيارة، أيادٍ تطوق ذراعاي، تجرني بقوة، تنزلني من السيارة على أرض صلبة، تجرني إلى الأمام خطوات، تفلتني كزورق صغير في وسط بحر متلاطم لا شاطئ له، أقف منتظرًا، الكيس يحيط برأسي، أحاول أن أرى شيئًا، أن أستبين الأرض التي أقف عليها، ظلام يلف عيني، تطول وقفتي، أشعر بالشمس تضرب رأسي.

قلتُ لها :

- أريدك لي.. لوحدي.. لا أريد أن ترقصي لهم... ولا تقتربي من أحد غيري.

قالت :

- ألم تخبرني أنك تشعر بالحرية عندما تراني، وعندما تقترب مني... قد يكون شعور غيرك مشابهًا... أتريد تقييد حريتهم؟.. أم أنك تسعى للعيش بحرية، وتجعل حريتك قيودًا تحبسهم؟... أم تراها الحرية مكفولة بك وحدك؟... الكل هنا يريد أن يشعر بها... وأن يعيشها.

- لكنكِ قلتِ إن هنالك غيرك..

- هنالك غيري... وللكل هنا حق الاختيار.. هكذا نحن الغجر؛ نعيش بحرية ونعطي بحرية، ونلهم من يشاء الحرية.. لكننا لا نجبره عليها.. وعلى من يطلبها أن يكون قادرًا على أن يفي بمتطلباتها.

ـ لكنني أغار عليكِ.

ـ بل قل إنك تريد أن تتملكني.. تريد أن تقيِّدني.. أن أكون عبدةً في بلاطك؛ أنام برغبتك، وأصحو بتوقيتك، وأقابل من تسمح.. وأنتظر منك فرصةً كي أشمَّ هواءً غير هواء قصرك... إنك تطلب حرية بمقاساتك أنت.

ـ وكيف السبيل إليك إذًا؟.. فأنا رجلٌ قروي، لا زالت محددات القرية تعشش في تفكيري.. لا زلتُ أرى أن أي رابطة تجمعني معكِ؛ وإن كانت رابطة بسيطة؛ فلابد لها من أن تمحو جميع روابطك الأخرى.

ـ السبيل أن تروِّض نفسك، أن تعلِّمها أن حريتك لا تعني القيود بأيدي الغير.. وأن تجعلها تتيقن أن حريتك تنبع من حرية غيرك... نحن هنا نوجد أجواء الحرية؛ لكننا لا نفرضها فرضًا... هل سمعت يومًا أن غجريًا هجم على مدينة، أو حتى قرية، وحاول فرض طقوس الحرية التي يؤمن بها؟... وهل شاهدت حفلاً غجريًا عند أناس دون رغبتهم؟... وهل وجدت يومًا فرقة غجرية بقيت عند مضيفها فترة أطول من ساعات حفلها الراقص؟... يا حبيبي نحن لا نفرض أنفسنا فرضًا.. نحن نوجد الفرصة، ونوجد الأسباب... ومن يرى أن حريته تتوافر عندنا يأتي إلينا... الحرية لا تُفرض بالقوة.. الحرية تتواجد عندما توجد أسبابها... أما ما يُفرض بالقوة فهو العبودية لا غير.

سحبني أحدهم، كنت أظنه جنديا، خاطبني، كان مترجمهم، قال:
- ستخضع للتحقيق الآن... عليك أن تجيب بصدق... لا تحاول أن تكذب، لأنهم يعرفون كل شيء.

كنت أستمع له، لكن ذهني لا زال هناك، عجيب أمر الإنسان، فبقدر ما يتمسك بالدين وبالصلاح في أوقات الشدة والعسر، تهجم عليه رغبات مكبوتة وذكريات مدفونة، طيلة السنوات الماضية لم أتذكرهم كما اليوم، إن للغجر حياة أقرب للحرية.

- ليت الامريكان يتعلمون منكم... قلتُ لنفسي

- هاه...ماذا تقول؟... ردَّ المترجم بعصبية.

- لا شيء... إنني أكلِّم نفسي... قلت.

صمت المترجم لحظات استشعرت خلالها بالريبة التي تتملكه.

مشيتُ لمسافة، أحسستُ بأفول أشعة الشمس المسلطة على رأسي فعرفت أنني دخلت مكانًا مسقفًا، أُجلِستُ على كرسي فشعرت براحة كبيرة؛ مع أن يدي لا زالتا موثقتين، رفعوا الكيس المبتلع لرأسي، فكوا قطعة القماش الملفوفة حول رأسي مغطيةً عيني.. فتحتُ عيني، لا أرى شيئًا، عدتُ أغمضها، ثم فتحتها من جديد.. أمامي طاولة بلاستيكية بيضاء يجلس على طرفها المقابل جندي، أو ضابط، لا أعرف، وعيناه تحدِّق بي، كان في العقد الثالث من عمره، وجه طويل، سحنته حمراء، أنفه دقيق، وله عينا ثعلب، أمامه أوراق مكتوب عليها كلمات بلغة إنكليزية:

- What's your name

- ما اسمك؟... قال المترجم الذي يجلس على جهته مبتعدًا قليلًا.

- شلش... شلش المرهون.

- How old are you /

- كم عمرك... ؟ قال المترجم.

- أربع وخمسون سنة

- فيفتي فور... قال المترجم.

- .... سأل المحقق بكلمات لا أعرفها.

- ما هي صلتك بالمجموعات الإرهابية؟... أعاد المترجم سؤال المحقق.

- ليس لي أية صلة... أجبت.

- .... ترجم المترجم كلامي.

- .... تكلم المحقق.

- هل تعرف أحدًا منهم؟... أعاد المترجم.

- كلا.. لا أعرف أي أحد منهم.

- من قام بضرب دوريتنا في الشارع الملاصق لدارك؟.

- لا أعرف... أنا كنت في بيتي وسمعت الانفجار والاطلاقات.

- ما هي صلتك بالمدعو سامي ؟

ـ هو شاب هجرت عائلته من بغداد بسبب الاقتتال الطائفي، وسكنوا الحي الذي نسكنه، وهو يعمل عندي في ورشة تصليح الساعات التي أديرها أمام بيتي.

ـ هل لسامي صلة بالإرهابيين؟.

ـ لا ليس له صلة فهو يقضي كل وقته في عمله داخل الورشة.

ـ وما هي معلوماتك عن المدعو منَّاع ؟

ـ منَّاع هو ابن أخي سليمان... وهو متزوج ولا أعرف ماذا يعمل كوني لا أتكلم معه وبيننا خصومة.

ـ وما سبب الخصومة بينكما ؟

ـ هو أراد أن يتزوج ابنتي وأنا رفضت بسبب أنه متزوج وعنده أطفال.

نهض المحقق ونهض المترجم معه فتقدم مني جندي كان يقف على مقربة، أوقفني ثم أعاد ربط قطعة القماش حول رأسي وفوق عيني، غطوا رأسي بالكيس، جروني معهم، مشيت مسافة، خرجت من البناية إلى الشمس ثم دخلت بناية أخرى، الجندي الذي يجرني يتكلم مع غيره، باب يفتح، نمشي، ثم باب آخر يفتح، يفك وثاق يدي، ثم يرفع الكيس من على رأسي وتُزال قطعة القماش التي تغطي عيني، وأُدفع داخل غرفة ظلماء...

تلمستُ المكان علّني أجد شيئًا، يقولون إن الظلام هو الأساس، وأن الضوء جاء بعده، بعد أن خلق الله الشمس، الإنسان يخلق في ظلام، لا بل في ظلمات قبل أن يُقذف إلى النور عند ولادته... أيكون هذا الظلام الذي يلفني هو بداية حياة جديدة؟.. وأية حياة هذه ستكون يا ترى.

كانت الغرفة فارغة، أحسست ببردٍ يلسعني، وتعب بعيد يجهدني، ضممت يدي إلى صدري وجلست... ركنتُ ظهري إلى الجدار مستسلمًا لقدري.

• • • •

شلش

(٣)

تحقيق بعد تحقيق.. وتسفير من مكان إلى آخر، أماكن كثيرة، وبعيدة، شعرتُ للحظاتٍ أنهم أخذوني خارج العراق... يتغيّر المحققون بين جلسة وأخرى، الكل يحقِّق لوحده، الجيش، والسي أي ايه، والإف بي آي... والأسئلة نفسها: (ما صلتك بالإرهابيين؟... هل اشتركت في ضرب القوات الأمريكية؟... هل اشتركت في تمويل الإرهابيين؟... ما صلتك بتنظيم التوحيد والجهاد؟)... وأجوبتي نفسها لم تتغير: لا صلة لي.. لم أشترك في ضرب القوات الأمريكية.. لا، لم، لا أعرف، لا علم لي... والتهم هي هي: (الإرهاب، تمويل الإرهاب، الانضمام إلى التوحيد والجهاد، ضرب القوات الأمريكية)...

وكانت المحطة الأخيرة: سجن أبو غريب.

في سجن أبو غريب حياة أخرى (إن صح تسميتها بالحياة)، في البداية حسبتُ أنهم سجنوا كل رجال العراق، رجال وأطفال، شيوخ وشباب، أصحاء ومرضى، أناس مقعدون، حتى الخرسان تواجد عدد منهم هناك.. لا بل إنني رأيتُ عددًا من المجانين كانوا من ضمن إرهابيي الحرية الجديدة هناك... ولولا أنني حديث عهد بترك الحياة خارج أسوار السجن، وأنني رأيتُ الأعداد الكبيرة التي تجول

شوارع البلد بعد أن حولوه إلى سجن كبير، لقلت إنهم أفرغوا البلاد من الرجال.

دكوني دكًا في زنزانة تسعّ لعشرة أشخاص كحدٍّ أعلى، وكان العدد فيها اثنان وعشرون، كل من فيها تجمعهم هوية واحدة هي عراقيتهم، وتهمة متقاربة - إن لم تكن واحدة - هي رفضهم احتلال بلدهم... لكنهم في الحقيقة كانت قلوبهم شتى، عدوى الاختلاف والتخندق والطائفية نُقلت إليهم، أو قد يكونون هم بؤرتها التي أوجدها المحتل بينهم لينقلوها إلى خارج أسوار السجن بعد خروجهم الذي يحدد ساعته هو... لا أدري.

كردي، عربي، تركماني، سُنِّي، شيعي، وهابي، رافضي، ناصبي، إخواني، إسلامي، ليبرالي، شيوعي، سلفي... مسميات كثيرة ولها فروع.

يقال إن أقوى العلاقات هي تلك التي تنشأ في ظروف القسوة والصعاب.. وهل أقسى وأصعب من السجن ظروف؟. العلاقة بينهم كانت أشبه ما تكون بعلاقة راكبي لعبة "سكة الموت"، الكل يصيح ويبكي مما يتعرضون له، همهم واحد، تشعر أنهم متحدون، وقريبون من بعضهم، وما أن يزول الخطر؛ يعودون أغرابًا، لا أحد منهم يعرف الآخر، كلٌّ يعود إلى ما كان عليه، مثل الأعداء، وقد يتقاتلون فيما بينهم لأجل شخص لم يكن بينهم في محنتهم.

لم أشأ ان أكون ضمن أي خندق من خنادقهم، مع أنني لستُ مخيرًّا بينها كلها.. تقرَّب مني من يظن أنني من طائفتهم، وحاول آخرون

أن أكون ضمن تكتلهم.. لكنني آليتُ أن أحتفظ بصفتي العامة التي تربطني بهم كلهم؛ بعراقيتي، وأن لا أنجرَّ إلى صفاتٍ أضيق.. وكانت تلك مخاطرة كبيرة، فالحال في سجن ليس كما الحال في غيره، وإن لم تكن مع مجموعة تحميك فيه، فالكل يكون عدوك.

وللحقيقة عشتُ ليالٍ مرعبة، ومع وحشة السجن وما قد أتعرض فيه، كنت أخافهم جميعًا، لكن خوفي الأشد كان ممن أُحسب عليه أكثر من غيره، فعدم إنضمامي إليهم يعني بالنسبة لهم أني أرفضهم، وأرفض منهجهم، لكن الذي شجعني وأبقاني على خياري الصعب هذا هو تعرفي على (الحاج خالص).. هو شيخٌ في الستينات من عمره، حين شعر باختياري البقاء على صفتي التي تجمعني مع الجميع، وأحسَّ بخوفي وقلقي المتوحش؛ جاء إليَّ وجلس قربي، قال:

- ابقَ على ما أنتَ عليه.. سيحبك الجميع بعد فترة قصيرة... لكن اصبر... ولا تخف، سأكون قريبًا منك... أنا عانيتُ مما تعانيه أنت الآن... لكنني اليوم معهم كلهم.

كانت كلماته تنساب بثقة راسخة، وهدوء...

أحسستُ حينها أنني وجدتُ منقذي، فعادت السكينة إلى روحي المستوحشة.. كان الجميع يحترمه، ويسمع قوله، لم يكن يُحسب على أحد منهم، لا أحد يعرف توجهه، كان مع الجميع، ولجلسته تلك، وكلامه معي، أثر كبير في تهدئتهم، وكأن أمرًا صدر إليهم بتركي وشأني، حتى أنني ظننتُ أن "الحاج خالص" قد أخبرهم

أنني صرتُ ضمن مجموعته... وعندما راجعت حاله خلال الأيام القليلة التي مرَّت؛ وجدت أنه لا مجموعة له، كان الجميع بتلونهم وتشكلهم مجموعته.. فارتحتُ قليلاً واطمأننت لذلك، وزالت مخاوفي، وعزمتُ على أن أقوِّي علاقتي به.

ما أن وضعت رأسي على وسادتي حتى غفوت.. كان شعوري بالطمأنينة مخدرًا.

بعد ليالٍ من الوجل والخوف، رأيتُ (أفكار)، كانت تركض، تهرب من شيء يلاحقها؛ كلب أو ذئب؛ كان يريد أن ينهش لحمها، وهي تركض جاهدة، وتنادي، تنادي عليَّ لأنقذها: (أبي... أبي...)... صحوتُ جافلاً، مرتجفًا، عطشًا... بحثت عن شربة ماء أرتوي منها، قنينة ماء كانت قريبة، وجدتها وشربتُ قليلاً، ثم تحركتُ صوب الجدار وأسندتُ ظهري إليه....

ترى ما حلَّ بكِ يا ابنتي، لقد انشغلتُ بحالي عنكِ طيلة الأيام الماضية، وهل لي إلا أن يكون حالي هو ما يهمني، لقد علَّمتني أيام الجيش في ساعات الضيق أن أهتم بحالي ريثما أعود إلى بيتي، وأن لا أشغل تفكيري بمشاكل وقضايا أخرى لا أستطيع أن أغيِّر منها شيئًا، أو أن أقدِّم فيها ما يستوجب، فتتأثر نفسي وتتهاوى عزيمتي، فيسوء حالي ولا أستطيع تحمل ما يلم بي، وما يتوجب علي في تلك الحال، فيؤثر ذلك على امكانية تحمل ما أنا فيه، وقد يتعثر حالي ويسوء أكثر مما أنا فيه، فيطول غيابي... لذا فما علَيَّ في هذا السجن إلا أن اهتم لحالي، وأن أبذل جهدي ولا أشغله بهموم

ومشاكل بعيدة لن تزيدني إلا همًّا وضعفًا، كي أستطيع العودة إليك على الأقل بعقلي السليم.

عدتُ لأنام، كانت دموعي تنهمر بغزارة، حاولتُ السيطرة عليها، لكنني فشلت.. أحسستُ برغبة عاتية للبكاء، كظمتها لمرة أو مرتين، لكنني في النهاية استسلمتُ لها فغمرني الأنين، حاولتُ أن أكمده كي لا أشعر من حولي، وكان فشلي واضحًا، سمعتُ صوتًا يناديني:

- شلش...شلش...

انتبهتُ إليه، كان صوت "الحاج خالص"، أجبته محاولاً أن يكون صوتي طبيعيًا فلا أشعره ببكائي:

- نعم...

قال :

هل تشكو من شيء...

- كلا...كلا لا شيء.

عاد وسألني :

- هل تبكي ؟

وما إن سمعت سؤاله، أحسستُ بكل بكاء العالم ينحدر إليَّ، لم أستطع أن أخفي لوعتي وبكائي، شعرتُ وكأنني طفلٌ ضربه والده وتركه لظنونه في أنه يبغضه، وفي لحظة حنقه الشديد وظنونه

المتنامية، يحتضنه والده ويقبِّله، فيشعر بخطأ ظنونه، وبالحنان الكبير الذي افتقده خلال اللحظات التي مضت.

بكيتُ... أسرع "الحاج خالص" وجاء بقربي؛ مع أن المكان مزدحم جدًا، جلس بجواري، حاول أن يواسيني، قال:

- لا تبكي... ستفرج...

قلتُ له باكيًا:

- ابنتي، ابنتي الوحيدة.. تركتها لوحدها... أمها ماتت وليس لها إخوة.

قال:

- كلنا مثلك...كلنا تركنا أبناءنا وبناتنا.

بكيتُ، وازداد بكائي بعد أن سمعتُ نشيج بكاءٍ قربي.. جاء الحاج خالص ليواسيني فجعلته يبكي، كان منظر بكائه إيذانًا لي بأن أنوح، صحى معظم المعتقلين على بكائنا، ورويدًا رويدًا كنتُ أسمع نشيج البكاء من كل أرجاء الزنزانة.

مرَّت أيام... كان الوقت يمرُّ ببطء، والأحوال تسوء، صباحًا يبدأ السجانون بجرنا واحدًا تلو الآخر للخضوع لتحقيق جديد، ولتأليبنا ضد بعضنا البعض، ثم نعود لننقسم إلى مجموعاتنا التي أوجدوها ورضينا بها وتمسكنا بها.. وفي الليل يختلف الحال من يومٍ إلى آخر، ومن سجَّانٍ إلى آخر، فمنهم من يحب أن يسهر على عذاباتنا وهمومنا فيجعل الليل وقتًا لإعادة التحقيق؛ وأحيانًا للتعذيب.. كان

أحدهم يسعد كثيرًا حين يرى الرعب يتملكنا حين نفرّ قافزين لندخل زنزانتنا هربًا من أنياب كلب متوحش يفلته خلفنا.. ومنهم من يتسلى بردة فعلنا على ما تعرضه علينا مجندة منهم من مفاتن جسدها، أو ما يقومون به بينهم من حركات تثير غرائزنا.

حتى جاءت تلك الليلة... كانت ليلة زنزانتنا، أخرجونا إلى الباحة التي تجتمع فيها أبواب الزنزانات.. قيدونا، وغطوا عيوننا، فلم نعد نراهم أو نرى بعضنا... تلك الليلة حفرت أحداثها في ذاكرتي حفرًا، جروني بقوة، مزقوا ملابسي، كانت آلة حادة تشقها بعجالة، مزقوها كلها، حاولت أن أستبقي شيئًا يستر عورتي، توسلت بهم، كانوا ضاحكين مستهزئين، ولهاث كلابهم يُسمع على مقربة كأنها تنتظر دورها لتهجم معهم.. رفعوا غطاء عيوني، نظرتُ صوب زملائي خجلاً، نظراتنا تتشابه، وحالهم مثل حالي، المنظر مريع، كنتُ أظنُّ أنهم عرّوني لوحدي، كان الجميع عُراة، ومقيدين، والكلاب متوثبة تستحثهم للهجوم... أوقفونا جنب بعضنا، وبدأوا يلتقطون صورًا لهم بيننا، كانت نساءهم المجندات من بين حضورهم، وكن مستأنسات وجذلات بمنظرنا... صورونا بأوضاع مختلفة: واقفين وجلوسًا، متباعدين وركامًا، كانوا يرموننا واحدًا فوق الآخر، ثم يجلسون فوقنا ويصورون بعضهم...

أعادوا أغطية عيوننا ليبدأوا فصلاً آخر، جروني إلى كرسي من حديد ثقيل وربطوني إليه، ألصقوا وجهي على خشبة الكرسي، وشدو عنقي إليه، ربطوا يدي إلى قوائمه، بينما كانت ركبتاي إلى

الأرض، إيادٍ تتحسس جسدي، وضحكاتهم تتعالى.. أحسست بشيءٍ يلجُّ بين فردتيّ مؤخرتي.. هرجهم يزداد، وتعليقاتهم، وتصفيق أياديهم.. في البداية ظننتها عصا من عصيهم المكهربة، أو يد أحدهم.. لكن الأمر وضح بعد لحظات، كانوا يجرون عرضًا أمام كاميراتهم لاغتصابنا.. حاولتُ أن أتزحزح، وأن أغيِّر من وضعي الذي كنتُ عليه.. خارت قواي، وتآمرت أعضاء جسدي الأخرى معهم.. كانوا قد اغتصبوني، واغتصبوا الاخرين واحدًا تلو آخر، وصوروها ليتذكروا، وكنا لا نحتاج إلى صور لتذكِّرنا بحالنا، وما آل إليه، بعد أن سلمنا بواقعنا الجديد وارتضينا بهم ليتحكموا بحال وطننا بين أيديهم كيفما شاءوا.

أيام ونحن مرضى، لا نأكل ولا نشرب، لا نتكلم مع بعضنا، أنين البكاء تسمعه بين حين وآخر، في الليل وفي النهار، لا نعلم على من نضع اللوم، ومن يتحمل المسؤولية: هم؟.. أم نحن؟.. أم العالم الذي اختار أن يتفرج على مصيبتنا..

بعد يومين سادت جلبة كبيرة في أنحاء السجن، زارتنا مجموعات منهم، وتفحصتْ قسمًا منا، واستنطقتنا كلنا، فهمنا أن ما جرى ليلتها قد سُرِّب منهم، ونشرته وسائل الإعلام، وأن رأيًا شعبيًا رفض هذه الممارسات وأدانها، وطالب بمحاسبة الفاعلين... انتشر الخبر وظهرت الصور في كل أرجاء العالم، فكنا مثل التي تحرش بها جارها فأحضروها وسط السوق ليأخذوا لها حقها.

لم تمر أيام حتى أُغلقت قضايانا، وأُسقطت عنا تُهم الإرهاب، ثم أطلق سراحنا بعد التوقيع على إقرارات بعدم تعرضنا إلى أي فعل ينافي حقوق الإنسان ومبادئ القانون الدولي، وتعهدات بعدم رفع دعاوى قضائية عند أية جهة، وعدم التحدث بالموضوع.

• • • •

شلش

(٤)

الطريق إلى البيت يمر بسرعة، تمنيتُ أن لا أصل، أن أبقى أدور وأدور، تساؤلات كثيرة جالت ذهني: كيف لي أن أقابلهم؟.. ترى هل وصلهم الخبر؟.. وهل علموا أنني كنتُ ضمن المشاهير؛ مشاهير الحرية الجديدة والعالم المتحضر؟.. كيف ستقع عيني في عيونهم؟.. وكيف ستكون ردة فعلهم مني؟.. ومن سيكون حاضرًا معهم، ليشهد انكساري واعترافي بالفجيعة؟.. لا شك أن يكون ذلك القسم منهم الذي كنت أستشعر في نظراته معاني الاستصغار وعدم الاحترام قبل اعتقالي سيكون حاضرًا بينهم اليوم.. ترى كيف ستكون نظرتهم اليوم إن كانوا قد عرفوا الذي جرى؟.

نعتقد أن أعزَّ ما نفقده في حياتنا هو الروح، وانها آخر ما يغادرنا... وإذا متنا وزهقت أرواحنا لم يتبق شيئًا نحتفظ به أو نبقيه بعدنا... وما درينا أن الإنسان يبقي وراءه أشياءً، ويأخذ أشياءً أخرى بعد أن يفقد روحه ويموت، فهي تبقى ملازمة له وملتصقة به، أشياء قد تكون أهم من الروح، ولذا فهو يحتفظ بها، ولا يعطيها، حتى إن شعر أن الروح ستكون ثمنًا لها، فالكل مستعد - مع استثناءات قليلة لا تجدر بالحسبان - أن يدفع روحه مقابل أن يستبقي على كرامته،

وأن يستبقي ذكر عمله الجميل، وليحظى باحترامه، والكل يناضل جاهدًا كي يصون شرفه.

لكنهم أخذوها كلها، وتركوا أرواحنا.. أخذوا كرامتنا، واحترامنا لأنفسنا، وشرفنا.. لم يبقوا لنا شيئًا لنأخذه معنا، أو نبقيه وراءنا، أخذوها، ويا ليتهم أخذوا ارواحنا معها، أو قبلها.

قريبًا من بيت أهلي، حشود أناس، يبدو أنهم علموا بمقدمي، وها قد حانت لحظة الشعور بالذل والمهانة، التي من المؤكد أنها ستتكرر وتتكرر... آه، فقط لو كان بيدي خيار آخر، لولا أنك يا (أفكار) هنا؛ ما كنتُ أتيت، ولولا خوفي عليكِ من ذئابهم؛ لأخترتُ طريقًا آخر، ولو أنني فقط اطمأننتُ لحالكِ بعدي؛ لسعيتُ لآخذ بثأري، وأردّ كرامتي... لكنني مكبلٌ بكِ، ومخنوقٌ برباطك، وسأتحمل كل شيء لأجلكِ.

ومع اقترابي من كل الإجابات عن أسئلتي؛ كان دويٌّ قرع الطبول يصل سمعي، وصوت موسيقى، وأناس تغنِّي... ورويدًا رويدا صارت أصواتهم واضحة:

- (جانه البطل جانة...وبفرحة خلانه...

بالذل ابد ما قبل... وقفته وقفة جبل...

ردَنه هيبتنه... وأعدانه خافتنه.......).

انتابتني رغبة كبيرة للضحك، مع كل ما تحتمله نفسي من ألم ومعاناة، الضحك من هذا المجتمع ومن معكوساته، من زيفه

وخداعه ومن قشوره التي يبدلها كيف يشاء... آه لو تعلمون بما قدمتُ، وبما أُنتزع رغمًا عني.

استقبلني أخي (سليمان) بأحضانه ما أن وطأتْ قدماي الأرض.. قال وسط هرجٍ عالٍ:

- الحمد لله على سلامتك.. لقد شرفتنا ورفعت رؤوسنا.. ما قدَّمته كان مفخرةً لنا... كلنا نتكلم عن بطولاتك.

هذه المرة ضحكتُ؛ ضحكتُ على ما قدَّمته، على بطولاتي، وعلى ما رفعتُ به رؤوسهم.. وضحكتُ لأنني صرتُ مفخرةً لهم... أي نفاق وأي دجل هذا الذي نصطبغ به وكلنا يعرف الحقيقة، وإن كان بعضنا لا يعرفها كاملة.

سكت سليمان للحظات، ثم قرَّب رأسه مني وتكلم في أذني بنبرة شعرت بجديتها وحسمها، قال:

- لكن ينتظرك أمرٌ آخر تقوم به لتبقى رؤوسنا مرفوعة.

أجفلتني كلماته الأخيرة، وقطع علي ضحكتي المجلجلة، استذكرتها مع نفسي، أعدتُ تذكر صورته وهو يقول : (ينتظرك أمرٌ آخر تقوم به لتبقى رؤوسنا مرفوعة).. ترى ما هو هذا الأمر الذي سأرفع به رؤوسهم؟... شعرت بجسدي كله يرتجف حين افترضته شبيهًا بالأمر الذي رفعتُ به رؤوسهم قبل أيام.

كانت لهفتي لابنتي كبيرة، واشتياقي لها عارم، وحاجتي إلى أن أطمئن عليها مربكة.. فتشت بين الوجوه وأنا أدخل البيت لعلِّي

أحظى بوجهها فلم أجده... ارتبكتُ وخفتُ، كان قلقي يزداد مع كل خطوة أمشيها دون أن ألتقي عينيها، الناس تصافحني، وتقبِّلني، كمقاتل جاء من حربه منتصرًا، وأنا أبحث عن (أفكار)... دلفتُ الدار، احتواني حضن والدتي، وقفتْ لتضمني بين ذراعيها كطفلٍ عاد لتوه من ضياع.. إحساس كبير بالأمان شعرت به وأنا بين أحضانها، لكن عيناي لا زالت تفتِّش عن (أفكار)، كانت تقف خلفها، أفلتُ نفسي من بين يدي والدتي وأقبلتُ إليها، احتضنتني باكية، قبلتها، بكت هي، وبكيتُ معها، أحسستُ أنها الوحيدة التي تشعر بهول ما جرى لي، بكينا طويلاً، وقبلتني طويلاً، لكنها كانت حزينة، كان حزنها أكبر من حزني الذي نسيته لحظة لقائها، الدموع تنهمر من عينيها دون انقطاع، سألتها :

- ما بكِ؟... هل جرى لك أي سوء؟

ازداد بكاؤها، أردت أن أتبين السبب.. أعدت سؤالي بغضب:

- هل هنالك شيء؟... هل آذاكِ أحد.. قولي ما بكِ...هيا تكلمي.

توقفت للحظة عن البكاء ونظرت إليَّ، قالت:

- يريدون قتلي.

صدمني كلامها، شعرتُ برغبة كبيرة أن أقوم أنا بالقتل.. أردت أن أقتل من آذاها، ومن يهددها، ومن يريد قتلها.. أردت أن أقتل كل هذا الكذب والزيف والنفاق والوحشية التي بسطت نفوذها وفرضت سيطرتها على سلوكيات المجتمع الجديدة.

سحبني أخي سليمان ناحية غرفة أخرى عندما رآني أقبل هاجمًا عليهم لأعرف سبب تهديدهم لابنتي، وما أن أصبحنا لوحدنا قال لي :

- لقد أخطأتْ ابنتك خطأً كبيرًا، وألحقت بنا العار، الأمر يتعلق بذاك الكلب "سامي" العامل في ورشتك، ولولا أنك غائب لغسل عارها أبناء عمومتها، كانوا يريدون القيام بذلك عاجلاً، لكنني آليت عليهم وأمرتهم أن لا يقدموا على أي فعل حتى تحضر أنت، فتغسل عارنا بيديك... وأنت اليوم رافع كرامتنا، والذائد عن شرفنا.

كانت كلماته خناجر تطعن قلبي، واتهاماتهم مشاهد تتكرر في ذهني لذلك الكرسي الحديدي اللعين، كنت أشعر كل كلمة منها تكبلني، وتدوسني، كان وقعها لا يقل قساوة عن ما فعله السجانون معي.

وقفت مذهولاً لا أعرف ما أقول، مذهولاً من تآمر وحوشهم، ومن تواطئ حملانهم، ومن حكمتهم التي امتهنت السكوت لتغطي جبنها وزيف كلماتها الرنانة.

شعر بذهولي، وبصدمتي، قال:

- يمكننا إصلاح الوضع، بأن نقنع أحد أبناء عمومتها ليتزوجها... ويستر عليها.

هذا هو الأمر إذن، فأما أن يتزوجها (منَّاع)، فيأخذ بالقوة ما فشل بأخذه باللين، ويكسر ذلك الحاجز الذي يشعره بالدونية، وليَبيض بها

صفحته السوداء وتاريخه البغيض وليقلب كل موازين الحق والباطل والصح والخطأ، فيكون هو الصح الذي لابد من أن يسير على خُطاه الجميع، وكل ما عداه إنما كان خطأً فادحًا، وتكون هذه النتائج برهانًا له، فتكون (أفكار) جارية عنده.. أو لابد من ذبحها، لتكون مثالاً يعتبر به كل من يقف بوجهه.

اتجهتُ إلى (أفكار) وجدتها كما تركتها، تبكي والدموع تجري أنهارًا على مقلتيها.. ترى هل يحق لي أن أحاسبك عن تهمة أنا نفسي لم أستطع تجنبها؛ وقد تكونين بريئة، فأنا أعرفك وأعلم جيدًا أنكِ بعيدة جدًا من الوقوع بمثل تلك الأخطاء بسهولة، وأنا أعرف نفسي وما جرى لها، وأعرف أنني لستُ بريئًا، فهل أكون مثلهم وأدَّعي الشرف وأقتلك؟... إن ما جرى لي قد جرى لهم كلهم؛ وإن لم يتعرضوا لما تعرضتُ أنا له، فنحن، أنا وهم؛ شركاء في المذلة والهوان.. ومع أن هذا لا يبرِّر لكِ الخطأ، لكنكِ على الأقل تمتلكين نسبة كبيرة جدًا من احتمالية أن تكوني بريئة مما يتهمونكِ به.. أما نحن، فما جرى ويجري لنا كل يوم لهو أكبر دليل على أخطائنا الكبيرة، وعلى تقصيرنا، وعلى استحقاقنا للعقاب أكثر منكِ... وحتى إن كان ما يتهمونكِ به حقيقة؛ فمن يا ترى المقصِّر؟، ومن المتسبب؟. هل هو خطأكِ أنتِ وحدكِ؟ وهل أنتِ السبب كله؟. أم هو من أخذني من بين يديكِ، ليتركك فريسة لذئاب هو جوَعها؟.. أم أنا عندما سلمت بواقع، ولم أحرِّك ساكنًا في ما يحتمل قلبي من رفض كبير له، فهانت علي نفسي وقبلت أن يتحكم بي وبوطني محتلٌ أجنبي؟.. ويكفي لأتحمل قسمًا من مسؤولية ما جرى لي ولكِ؛ أنني

سكنتُ ولم أتخذ موقفًا مشهودًا لأقنع به نفسي، وأقنعكِ أنني قمتُ بواجبي.. أم هم جميعهم عندما شاركوني الرضا بحال الوطن، واذعنوا لواقع الاحتلال وسكتوا عن ذئاب الوطن التي كانت تصطنع السلام، ووجدت الفرصة لتغدر وتهجم على الحملان؟.

إننا كلنا مقصرون، ومتسببون في كل ما جرى، لي ولكِ ولهم جميعًا، فإن أردنا المحاسبة؛ محاسبتك على خطأكِ المفترض؛ فمن الأصح، ومن المنطق أن نحاسب كل من تسبب بتلك الأخطاء قبل أن نحاسب الضحايا.

عدتُ أحتضنها وبكيتُ... جهشت ببكائها، قالت:

- والله يا ابتي... أقسم بغلاوتك عندي، وبروح والدتي؛ أن ما يتهمونني به كذب.

قلتُ لها:

- أصدقِّكِ يا ابنتي، فأنا أعرفك جيدًا، كما أعرفهم... لا تخافي.. سأكون جنبك، ولن أسمح لأحد منهم أن يتكلم معكِ، وبعدها سنرى ماذا سنفعل.

قالت:

- إن كان موتي يرفع رأسك بينهم.. فإنني أقتل نفسي بيدي.. أقتل نفسي ولا أراك تطأطأه.. لكنني لا أريدك أن تظن بي ما يقذفونني به، فأنا بريئة، والله بريئة.

• • • •

شلش

(٥)

كان لابد لي من التحرك بسرعة قبل أن يفلت زمام الأمر من يدي، قلَّبتُ الأمر كثيرًا في ذهني وما وجدت غير طريقين، كلاهما صعب التنفيذ، لكنني مجبرٌ على أن اختار أحدهما، الأول كان أن أطاوعهم وأبقي رأسي بمستوى رؤوسهم التي تصطنع الكبرياء وهي تُداس كل لحظة، فأحمل عاري وعارهم وكل عارات الدنيا، وأضعها برأس ابنتي؛ فأقتلها، فقط ليظنوا للحظاتٍ أن لا عار آخر عليهم غيره، وأنهم قادرون على أن يغسلوا كل العارات التي لحقتهم، وما دروا أن من العار ما لا يغسله حتى الموت... أما الخيار الثاني فهو أن أقتل ابنتي في عقولهم، وأن أُرضي إحساسهم بالحاجة في أن يكونوا شجعانا في وقت بلغ جُبنهم أقصاه، أن ألغي (أفكار) من واقعهم، وأحتفظ بها في واقعي أنا فقط.

وكان هذا هو خياري الذي عزمتُ عليه: أن ألغي (أفكار) من واقعهم، وأن أُشبع حاجتهم للإحساس بالتخلص من عارات كثيرة تكدست فوق جباههم بصفقة واحدة هي إيجاد الضحية، ثم التخلص منها.

عندما يكون دورك لتكون المخلِّص فما عليك ألا أن تتحمله، إنَّ كلاً منا يحتاج في حياته إلى عدد كبير من المخلَصين، نحتاج إلى مخلص يتحمل عنا فشلنا، فنرميه عليه.. وإلى مخلص نرمي فوقه أخطاءنا ونحاسبه عليها.. وإلى مخلص يتحمل عذاباتنا بينما نحن نرفل بالسعادة.

أخبرتهم أنني سأتولى الأمر، وسأغسل عارهم، وعاري أنا.. وفي قرارة نفسي كنتُ أتساءل: (ترى هل سأتمكن يومًا من أن أغسل عاري؛ عاري الذي حطَّ على رأسي يوم دخول المحتل، وعاري الذي احتواني بين قبضات ذلك الكرسي).

كان صباحًا أسودًا آخر يطل، اصطحبتُها وخرجتُ، طلبت إليها أن تغطي وجهها، أردت أن أهرب بها، لا أعرف إلى أين، لكن لابد من أن أبتعد بها، إلى مكان بعيد لا يصلونه، ولا يعرفها أحد فيه.. فكرَّتُ أن أخرجها من البلد، إلى أي بلد آخر، كان قراري التوجه إلى سوريا، وهنالك أعيش معها، بعد أن أصفِّي كل متعلقاتي، وأبيع ما أملك هنا، فما جدواه إن لم تكن (أفكار) فيه.. لكن هذا الأمر يحتاج إلى وقت، وإلى تهيئة، فهي لا تملك جواز سفر، وكيف سيتسنى لي أن أراجع بها مراكز إصدار الجوازات، وكيف سيكون الأمر إن صادف ورآني أحدهم بصحبتها، وهم يعتقدون أنما أخذتُها لأدخلها قبرها، ماذا سأقول له حينها، وهل يحتاج القبر إلى جواز سفر؟!.

وجدتُ نفسي استقل بصحبتها سيارة أجرة صوب الموصل، أجرّتُها مخصوص، لي ولها، فكرَّتُ أن استأجر غرفة في فندق ريثما أتدبر أمر جواز سفرها، كان الصباح بدأ ينشر ضوءه على الطريق، ونسيم الهواء البارد يجعل النوم سلطانًا، لكنني حاولت أن أنام ولم أتمكن، جلت بأفكاري وكيف السبيل إلى ما أنا فيه، فتذكرتُ فجأة، وكأن شخصًا نبهني، كنت قد نسيتُ (جواهر) طيلة الأيام الماضية.

عندما تضيق حياة المرء وتواجهه المصاعب فلا يجد خلاصًا منها ترد ذهنه أجمل ذكرياته، ويتمنى يومًا منها، أو ساعة، أو حتى لحظات.

قلتُ لها:

- لقد تعبتُ من بعدكِ عني... أريدكِ عندي.

قالت:

- وأنا الآن عندك.

- لا... إنما أريدك عندي دومًا.

ضحكتْ كعادة الغجر؛ حتى في مصائبهم يضحكون، قالت وكأنها وجدت الحل الأسهل:

- تزوجني إذًا.

فاجأتني... قلتُ:

- أريد أن أتزوجك... لكنني محكومٌ بأعرافٍ تقيِّدني.

أردت أن أستبين مدى جدية ما طرحتَه... قلتُ لها:

- وهل ترضين بي زوجًا لكِ ؟

قالت:

- كيف لي أن لا أرضى.. لكني أخاف عليك؛ أخاف عليك من نفسك.. أنا أعرف أنك لن تحتمل تاريخي، فانت لا تقبل تاريخًا لغيرك... وأنا لا أملك نفسي، ولي تاريخٌ وماضٍ طويل.. عرفت أناسًا كُثر... لكن أتدري: قِلة منهم من عرف قيمتي، والأغلب كنتُ وسيلته ليحقِّق بها أهدافه.

سألتها:

- وما هي أهدافهم ؟

- منهم من أراد أن يصل بي للمال وأن يجعلني سلعة يبيع ويشتري بها... وآخرين أرادوا السلطة، فقدموني عربونًا ريثما يحصلوا عليها، وعندما صارت السلطة بأيديهم، نكلوا بمن أخذني، وانتقموا منه، ثم جروني وأعادوني إلى سجونهم... وآخرين أرادوني، لكنهم ما أحسنوا معاملتي، وجعلوني اسمًا بلا معنى... فيا ترى من أيهم أنت؟.

أردت أن أدافع عن نفسي، أن اقول لها: أنا أريدك كما أنتِ، باسمكِ ومعانيكِ، أريدك لي، ولن أفرِّط فيكِ... لكنني تراجعتُ حين راودني شعورٌ غريب، أحسستُ للحظات بالخوف، كمن يقبل على التورط في أمر لم يعدّ العدة لتحمله.. قلتُ لها:

ـ أنا لستُ من كل هؤلاء... لكنني لا زلتُ أفتقد الجرأة.

انتبهتُ فجأة... كيف فاتني أن أستعين بها في محنتي هذه، قد يكون لها معارف فتهوِّن عليَّ مسألة جواز السفر.. لكن أين سأجدها؟ وكيف يا ترى هو حالها الآن؟ وهل ستفرح برؤيتي، أم أن تغير الأيام غيَّرها؟...

وقبل أن اصل مدينة الموصل كان البحث عن (جواهر) والاستفادة من علاقاتها هو قراري.

استأجرتُ غرفة في فندق صغير يطلُّ على نهر دجلة المنساب بهدوء وسكينة، أردت أن تكون (أفكار) عارفة بما أنوي، وأن تشاركني القرار، شرحتُ لها خطتي وما نويت فعله.. في البداية استصعبت الأمر وبدأ بكاؤها من جديد، وتقريعها لنفسها، وما تسببه لي من متاعب، لكنني استهونتُ الأمر عليها، وأقنعتها بإمكانية أن نعيش من جديد.

ولأجل أن لا تطول غيبتي فيظنون بي غير الذي أخبرتهم به، خرجتُ من فوري بعد أن اطمأننتُ إلى ان (أفكار) ستكون بخير في الفندق.

وبدأتُ رحلة البحث عن (جواهر)، وكنتُ قد أخذت مفتاح الغرفة، وطلبتُ من (أفكار) أن لا تفتح الباب لأي كان، وللحقيقة كانت بنتًا شجاعة سهلَّت عليَّ أن أخرج لأتمِّم ما بدأتُ.

في البداية ذهبتُ إلى موقف سيارات الأجرة الذي طالما قضيتُ فيه ساعات؛ وحتى ليالٍ؛ بانتظار سيارات الأجرة لتقلني إلى وحدتي العسكرية، أو إلى قرية (جواهر) المرمية على الطريق.. وعندما وصلتُ الموقف كانت خطتي أن أسأل عن القرية كي أتأكد من مكانها قبل أن اتوجه صوب أي مكان، فالغجر لا يربطون أنفسهم بأرضٍ معينة، وقد يكونون غيَّروا مكانهم...

ارتدتُ مقهى في زاوية موقف سيارات الأجرة وبدأتُ أسأل وأتقصى أخبار قُرى الغجر المتواجدة وكيف السبيل إليها.. قسمٌ منهم أخبرني أن عددًا كبيرًا من تلك القُرى هاجر إلى بلادٍ أخرى، وقسمٌ دلني إلى قُرى عرفتُ من وصفها أنها ليست قرية (جواهر).. حتى جاءني رجلٌ طاعنٌ في السن، وبدأ يسرد لي تاريخ الغجر وأماكن تواجدهم، كان بحاجة كبيرة لسكائر فاشتريتُ له علبة منها، وشربنا الشاي سوية، وقد علمت منه أنه من روادهم ومن المولعين بهم (شأني معهم قبل سنين)، ومنذ زمنٍ بعيد، فبقيتُ لفترة وأنا أسأله وهو يجيبني، حتى وصف لي قرية (جواهر) وصفًا دقيقًا، وأعلمني مكان تواجدها الحالي.. وعندما هممتُ أن أودعه شاكرًا، أبدى استعداده ليأتي معي ليدلني شريطة أن أشتري له قنينة خمر ليستأنس بها خلال الطريق، لكنني لم أكن بحاجة إليه، فأنا أعرف تلك الأماكن جيدًا. أعطيته مبلغًا ليشتري به ما يريد، وذهبتُ.

كانت القرية على مسافة بعيدة من المدينة، وقُرى الغجر كما هي لا تتغير، ما إن تراها تعرف أنها لهم، وأنهم هناك.. تركت سيارة

الأجرة ودخلت القرية من طرفها الغربي، لاقيتُ أناسًا كُثر لا أعرفهم، سألتُ قسمًا ممن يفترشون أبواب المنازل عن (هنادي)، قسم منهن أخبروني أنها سافرت إلى سوريا منذ زمن، وقسم قال إنها اختفت، درت البيوت كلها حتى لاحت لي (سراب)، وكانت من صديقات (جواهر) آنذاك.. في البداية لم تتعرف إليَّ، حتى ذكرَّتُها بتفاصيل كثيرة وأحداث جرت حينها، ثم ذكرَّتُها بقصة فكرة أن أتزوج من (جواهر) التي ظلت تراودني فترة طويلة، كنت متأكدًا من أن (جواهر) قد أخبرتها بها من باب التفاخر بينهما... فتذكرتني وسعدتْ بي كثيرًا، فهم - أي الغجر - يسعدون دومًا بصداقاتهم ويحفظونها، وتجدهم يفرحون كثيرًا عندما يلتقون بأناس يعرفونهم منذ زمن بعيد، وكأنهم يذكرونهم بأمجادهم التليدة.

في البداية لم ترد أن تدلني على (جواهر)، وقد شعرتُ بأنها تحاول إفهامي بعدم الحاجة للبحث عنها، أرادتْ استبقائي عندها كزبون، لكنني أخبرتها أنني أحتاجها في أمرٍ خاص علَّها تستطيع مساعدتي، عندها أخبرتني أن (جواهر) انتقلت من قريتهم منذ فترة وهي تسكن أطراف المدينة، ووصفتْ لي العنوان، فشكرتُها... واتجهتُ صوب (جواهر).

وصلتُ البيت كما في عنوانه، كان على أطراف مدينة لم تزل معالم القرية واضحة عليها، كان البيت متواضعًا وبسيطًا؛ كما يبدو من مظهره الخارجي... طرقتُ الباب المفتوح على منتصفه، حاولتُ أن أرى ما يكمن خلفه... ظهرت بنت صغيرة، عرفت من مظهرها

أنني جئتُ البيت الصحيح، كان شعرها مصبوغًا وطويلاً، مع أن عمرها لم يتجاوز العشر سنين، سألتها : (جواهر موجودة ؟).. استغربتْ البنت سؤالي، ورفعت حاجبيها ومطَّت شفتيها، ثم دخلت دون أن تجيب...

لحظات وفُتح الباب مرة أخرى...

كانت (جواهر) تقف أمامي.

• • • •

شلش

(٦)

الفراق الطويل مع من نحبُّ يجعله أجمل وأشهى، لطالما حلمتُ بلحظة اللقاء هذه، ولولا أنها تجري في أحوال لم تكن في أحلامي، لحاولتُ أن أستعيد تلكم الأيام وحلاوتها، لكنني وما أنا عليه من تقلب حالي وسوء أوضاعي لم يكن يشغلني أمرٌ أكثر من ترتيب أمر إبعاد (أفكار) عن منطقة القتل.

قلتُ لها:

- ها قد عدتُ من جديد.

ضحكتْ مثل كل مرة، كانت تتكلم وكأننا افترقنا البارحة، ولم تمضِ كل تلك السنين، قالت:

- ها.. قل لي: هل واتتك الجرأة أخيرًا فجئت لتعرض علي الزواج؟.. أم أنك تريدني أن أعيد عرضه عليك.

قلت:

- لا بل أنا من يعرضه عليكِ.. مع أنني عرضتُه عليكِ منذ عرفتكِ... وهو قائمٌ منذ ذاك الوقت، ولم أسحبه.

- وستلقاني دومًا بانتظاره.

- أيعني هذا أنني أستطيع الدخول؟

ضحكتْ أيضًا، ثم قالت:

- أتدري أن نظرتك هذه هي التي جعلتني أرفض طلبك حينذاك.

لم أفهم مقصدها، قلتُ لها:

- أية نظرة؟

- نظرة الاحتكار التي تؤمن بها.. إيمانك أن من يكون مع غيرك فهو ضدك.. يا حبيبي إنما أردت ممن يعشقني أن يفهم طباعي، ويقدِّرها.. أن يعترف بحريتي، طالما أنا ملتزمة بتقاليدنا نحن الغجر.

سحبتني من يدي وأدخلتني الدار، خُيِّل لي أنها كانت أصغر مما كانت عليها قبل سنين... هجم حنين الأيام الخوالي على مخيلتي، امتلأتْ ذاكرتي بما كان بيننا، جلسنا وتحدثنا كثيرًا، لكنني استغربتُ شعورًا بدأ يخالجني، شعورًا يدفعني للمغادرة، أحسستُ أنني أُفضِّل أن أبقى أجترّ الذكرى على ما أنا فيه من الواقع، فالذكرى تبقى جميلة، ناصعة، حدثت في وقتها الذي لا يشبه وقتًا آخر، فإذا حاولنا إعادتها فسنشوهها، أبدًا لا يمكن إعادة ذكرياتنا بنفس جمالها، وحلاوتها، وإقبالنا على الحياة فيها، سوى بطريقة واحدة؛ هي إعادة الزمن إلى حيث جرت أحداثها، وهذا ضربٌ من المستحيل.

كانت على استعداد لفعل كل شيء لأجلي.. شرحتُ لها حالي باختصار، وسبب مجيئي إليها، وما عانيته حتى عرفتُ مكانها...

قالت: اعطني يومين أو ثلاثة وسيكون جواز السفر كاملاً عندك.
وكان عليَّ أن أجلب صورًا لـ(أفكار) لتضعها على أوراق الجواز..
تبادلنا أرقام الهواتف، وعدتُ مسرعًا إلى (أفكار) كي نكمل أوراقها وما يتوجب من صور وبطاقات شخصية لإكمال جواز سفرها.

لم يكن الوقت يسمح لي أن أؤجل ما طُلب مني للغد، أخذتُ (أفكار) إلى السوق وأكملتُ كل متطلبات جواز سفرها، ولمَّا وجدتُ أن الوقت قد يتأخر إن أنا أوصلتُها للفندق؛ أخذتُها معي وتوجهنا إلى بيت جواهر الذي لم أجد مانعًا من اصطحابها معي طالما أن بيتها ليس في قرية الغجر.

كانت جواهر بانتظارنا، وما أن رأت (أفكار) تعلقت بها، وأظهرتْ ودًّا كبيرًا نحوها جعلني أأنس بهذا الحال.. أعطيتُها ما طلبتْ من أوراق وصور، وهممتُ أن نغادرها، لكنها طرحت على مسامعي مشكلة لم أفكِّر بها حينها، أو كنتُ أحاول أن أتركها لوقتها، قالت:
- ألست تنوي أن تعود لأهلك؟... كيف ستترك (أفكار) لوحدها... هل ستكون هي بأمان...وهل ستطمئن أنت عليها؟.

وللحقيقة لم أفكِّر بهذا، ولم يكن لدي خيارٌ آخر، قلتُ لها:
- ليس لدي خيار آخر.

- بل عندك خيار... وهو أأمن لها وسيريحك.

- وما هو ؟

- اتركها عندي وستكون بمأمن، وبخير.

صدمني عرضها، كيف لي أن أترك ابنتي عند غجرية، لها ما لها من علاقات، وقد يتردد إليها أناسٌ تعرفهم، كيف أهرب بها من أُناسٍ يريدون إلصاق العار بها، لأضعها عند أُناسٍ لا يعترفون بعاراتنا؟.

في البداية رفضتُ الفكرة، لكنني عدتُ وقلتُ لنفسي: ما المشكلة في ذلك؟ فأنا أعرف جواهر، وأعرف أنها تعرفني جيدا، وتعرف طباعي، وأنها ستحافظ عليها... لكن ترددي ظلَّ مسيطرًا، حاولتُ أن أتبين ما تفكِّر به جواهر، سألتها:

- أليس لديكِ زوج ؟

ضحكتْ، ثم قالت:

- أنا أعرفك، وأعرف تفكيرك وطباعك.. أنت تخاف غيري.. فلا تخف... ألم تعرف أنني مذ عرفتك ما رضيتُ بزوجٍ غيرك.

سكتتْ للحظاتٍ، ثم أضافت بجدية بدت في نبراتها:

- وأنا لن أستقبل أحدًا في بيتي طالما هي عندي... ثم أنك ستذهب لساعات، أليس كذلك؟.. وحتى إن طالت غيبتك فأطمئن لن يدخل أحدٌ بيتي... فاتركها ولا تخف.

- لكن...

لم تتركني أكمل، قالت:

- ألم تكن تريد أن تتزوجني؟.. ماذا لو وافقتُ حينها.. ألا يفترض أن تكون لي منك بنتٌ مثلها، وستكون ابنتك أيضًا... كيف ترضى أن تتزوجني ولا ترضى لابنتك أن تبقى عندي.

لم أستطع أن أجيبها، وجدتُها صادقة، إننا لا نستطيع أن نُدخِل من تربطنا به علاقة لا انفصام لها في تجربة مع أُناسٍ يمكن لعلاقتنا بهم أن تنفصم، أو حتى تتباعد... لكنني وجدتُ هذا الخيار أحسن وآمن من تركها لوحدها في غرفة فندق... أبقيتُ (أفكار) عندها من باب التجربة، وعدتُ لأحمل أغراضها من الفندق وأعود.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين عدت، وقبل أن اتوجه إلى بيتي، مررت بوالدتي، كانت وجلة وحزينة، بكت كثيرًا ما ان رأتني، سألتني عن (أفكار)، لم أجبها، كان وضعي سيئًا، قالت:

- إن ابنتك بريئة، صدقني يا ولدي.. وأنت ولدي العاقل، فلا تخطئ.. إياك أن تصدقهم.

أردت أن أخفِّف عنها قليلاً، فقد كنتُ أشعر بوجلها وحزنها عليَّ وعلى (أفكار)، مع أنني أعلم يقينًا أنها تعرف جيدًا أنني لن أؤذي (أفكار).. قلتُ لها:

- لا تهتمي يا أمي... لن يقع شيءٌ إلا ما كتبه الله.

ودَّعتُها واتجهتُ صوب بيتي، كنتُ أعلم أن الجميع ينتظر عودتي ليرى إن كنتُ لوحدي، وكنتُ أشعر بنظراتهم ترقبني... أغلقتُ باب

بيتي خلفي والتعب ينهكني.. وقبل أن تغمض عيني قررتُ أن أبقى يوم غدٍ في البيت كي لا أثير شكوكهم، على أن يكون سفري إلى (أفكار) في اليوم التالي.

• • • •

شلش

(٧)

الحياة لعبة كبيرة، سمجة، وسخيفة.. ما دخلها أحدٌ وخرج منها حيًّا، نلعبها بجدية وخديعة، نغش فيها ونتزاحم، وقد نتقاتل؛ لتحقيق الغلبة، قلة هم الذين عرفوا طريقة اللعب فيها وخرجوا منها فائزين، وأقل منهم أولئك الذين احتفظوا بنظرتهم إليها على أنها مجرد لعبة لا غير.

ولأنني فشلتُ في أن أحتفظ بنظرتي إليها على أنها مجرد لعبة، ولأنهم لم يتركوا لي الفسحة لأسعد بلحظاتها وأستطيب حلاوتها، قرَّرتُ أن أتعلم فنون لعبها، وأن أنافس حتى النهاية، علَي أستطيع أن أحقِّق الغلبة فيها.

طَرقٌ عنيفٌ على الباب، هرعتُ خائفًا وجِلاً، كان الطَرقُ قد ازداد شدة.. فتحتُ الباب، مجموعة من الشرطة تتجمع أمام الباب، جفِلتُ، سألني الضابط:

- هل أنت شلش المرهون ؟

أجبتُه:

- نعم... أنا شلش...ما الذي جرى ؟

طلب مني الضابط أن أذهب معهم إلى مركز الشرطة، حاولتُ أن أستفهم سبب اصطحابي، قال:

- ستعرف هناك... سيطرحون عليك بعض الأسئلة.

كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا.

سألني ضابط التحقيق:

- أين ابنتك أفكار ؟

أجبته:

- لا أعرف... استيقظتُ فلم أجدها... اختفتْ.

وكنتُ قد توقعتُ مثل هذا السؤال أثناء الطريق إلى مركز الشرطة، بعد أن فكَّرتُ كثيرًا لأجد سببًا يجعل الشرطة تطلبني، فلم أجد، لكنني توقعتُ أن (منَّاع) وأبناء عمومته قد يحاولون التأكد من أنني قمتُ بغسل عارهم الذي تراكمتْ طيَّاته فوق جلودهم.

سألني المحقق:

- متى اختفتْ ؟

- الليلة الماضية.

- يعني أنها كانت موجودة البارحة.

- نعم كانت موجودة... أنا كنتُ في المعتقل وخرجتُ البارحة، وكانت موجودة، لكنها اختفت ولا أعرف أين... قد تكون أُختطفت.. أو هربت.

سألني المحقق:

- من يخطفها... ولماذا تهرب؟

- لا أعلم... قلتُ لك إنني كنتُ في المعتقل... اسأل أعمامها.

أدخلوني السجن، قلقي كان على أشده، أردت هاتفي لأجري مكالمة مع (أفكار) أخبرها انني سأتأخر، لكنهم منعوني من استخدام الهاتف.

في اليومين الأولين لي في السجن رأيتُ من الكوة الصغيرة المفتوحة على الممر تردد أخي (سليمان) الذي مرَّ بي أكثر من مرة وأخبرني بانهم أبلغوا الشرطة باختفاء (أفكار) وأنهم يبذلون جهدهم لإخراجي، أكَّدتُ له أنني قتلتها ودفنتها في مكان بعيد، كانت نظراته لي توحي بالشك وأنا أخبره ذلك، كذلك رأيت (منَّاع) يتردد إلى ضابط التحقيق دون أن يمرَّ بي.

كان لابد لي من أن ألعب مع (منَّاع) ومن يدور في فلكه بطريقتهم، وأن أكون أذكى منهم، وأن أجعلهم يتأكدون من قتلي لابنتي، فلا يحاولون البحث عنها ليقتلوها، وفي نفس الوقت أنكر للشرطة هذه التهمة لئلا أُدان بها فيُحكم عليَّ ويتخلصون مني.

أُعيد التحقيق معي عدة مرات، كانت أقوالي للشرطة هي هي لم تتغير بإمكانية أن تكون (أفكار) قد هربت لسبب لا أعرفه، فأنا كنت في المعتقل ولم أخرج سوى ليلة البارحة... وعندما انفرد بسليمان ومنَّاع ومن يأتي معهم كنت أوحي لهم بطريقة تؤكد لهم أنني قمتُ بما يجب وقتلتُها، ولمَّا أراد منَّاع مني أن أدله على

قبرها، جابهته أمام الجميع بقوة، واتهمته بانه يريد أن يثبت للشرطة عملية القتل فيُحكم عليَّ، وتلك كانت أفضل طريقة أبعدتهم عن طريق (أفكار)، وخلصتني من تهمة القتل التي يتهمونني بها، فخرجتُ من السجن بعد ثمانية أيام، بكفالة سليمان، واتصلتُ من فوري بـ(أفكار) لأطمئن عليها، وكم كانت سعادتي وهي تصف لي (حلاوة) هنادي وما تبذله من جهد لإرضائها، وقد شعرتُ من نبرة كلامها أنها مرتاحة لولا قلقها لتغيبي عنها لأيام.

كنتُ أعرف أن منَّاع لن يتركني وشأني، وسيحاول التخلص مني بطريقة أخرى إن لم يتأكد من قتلي لـ(أفكار) التي رفضته، بعد أن تعود الحصول على ما يرغب، فإذا لم يتأكد من قتلي لها فسيقتلني بطريقة من طُرقه الكثيرة، وبقتلي سيتحقق له قتل العصفورين بحجر واحد، باستحالة استمرار (أفكار) بالحياة من دوني؛ خصوصًا وأنني لم أتمكن بعد من أن أرتِّب لها حياة تُمكِّنها أن تستمر من دوني، وهذا ما سأعمل عليه حتمًا، ولذا عزمتُ أن أبقى ليلة أخرى في بيتي مع كل ما بي من قلق لوضع (أفكار) وتركي لها للأيام الماضية، وقد كانت مهاتفتي لها وشعوري بمأمنها دافعًا يجعلني أنحاز لأتبع عقلي في حركتي أكثر من قلبي وما يحتمل من عواطف وقلق وخوف.

وصلتُ (أفكار) عند طلوع الشمس، كنتُ قد تركت بيتي في جُنح الظلام، ودرتُ كثيرًا في طُرق ودروب ضيقة لأتأكد من عدم ملاحقتي من أحد، ثم استقللت سيارة أُجرة لوحدي واتجهتُ إلى

(الموصل).. حاولتُ أن أضيع قليلاً من الوقت حتى تصعد الشمس إلى السماء، دخلت مطعمًا شعبيًا صغيرًا وتناولتُ فطوري.

أيمكن أن يكون الأهل أعداءً لنا؟.. وهل يتحول الوطن إلى جحيمٍ يصطلينا بنيرانه المتأججة.. صرتُ أشعر أنني أُولد من جديد كلما ابتعدتُ عن أهلي وعن بيتي.. ثقل كبير، وهمٌّ ثقيلٌ ينزاح عن كاهلي كلما ابتعدتُ المسافات عنهم.. كنتُ قد خسرتُ ما كان متحققًا من توازن في العلاقة مع من يحيطون بي قبل اعتقالي، كانوا يهابونني، ويخافون مجرد التحرش بي، لكن غيابي أعطاهم الفرصة ليوجدوا وضعًا آخر وتوازنًا جديدًا في العلاقة بيننا، كانت القوة فيه لهم، ولم أعد أستطع مواجهتهم، فكان لابد لي من الهرب والابتعاد عنهم ريثما أعيد ترتيب أوضاعي، وأحقِّق نوعًا من القوة تعيد التوازن في العلاقة معهم لصالحي... وها أنا ذا أسير في خطوات ترتيب أوضاعي، فهل تراني سأنجح؟.

استقبلتني (أفكار) بحنين، وبتودد، وبشكر وعرفان لم أفهم سببه في البداية، لكنني عرفته بعد ما لاحظت مقدار الأُلفة التي تشكلت بينها وبين جواهر، كانت (أفكار) قد أشرق وجهها، وبدت أسعد من كل وقتٍ مضى، إن شعورها بزوال الضغط المخيف الذي تعرضت له أعطاها دافعًا جديدًا للحياة وللمستقبل.

إن الحرية هي إكسير الحياة، الحرية الهادفة والبناءة، لا حرية الهدم والابتذال، والقتل والمخالفة، والويل كل الويل لنا إذا ما فقدنا حريتنا، وأُستعبِدنا باسم التقاليد أو الدين.

كل الأديان تنادي بحرية الإنسان وترفض العبودية والطغيان، لكننا نحرِّف معناها ونلويها لتتوافق مع تقاليد وأعراف تحقِّق مصالح فئة ما، فتجعل منا عبيدًا أو وحوشًا أو مجرمين، وإذا ما توافق الدين مع العُرف والتقاليد، فكل شيء يصبح ممكنًا؛ وإن كنا لا نرضاه في قرارة أنفسنا.

كانت سعادتي بوفاء (جواهر) بوعدها في أنها حافظت على (أفكار) خلال غيابي كبيرة، وزادت من قيمتها عندي درجاتٍ مضاعفة، وأثبتت لي على الأقل أنها تملك من الصفات ما يجعل خياري في لحظة من لحظات حياتي بالاقتران بها مقبولاً لو تمَّ وتبعته إرادة لتغيير ما لا يصلح، ولم يكن جنوحًا للعقل أو اضمحلالاً للغيرة أو جموحًا في العشق والهيام.

ومما زاد من سروري وغبطتي، وامتناني لجواهر؛ أنني وجدت أنها قد أكملت جواز السفر لـ(أفكار) كما وعدتْ، مع أنها كانت ترجوني أن أبقيها عندها مؤكِدة أنها سترعاها وفق طباعي وما أريد، لكنني كنتُ قد قرَّرتُ المضي في ما نويتُ من ترك الوطن والهجرة بها إلى مكان لم تزل تحكمه القوانين، مهما كانت تلك القوانين، فوجودها وإن كانت لا تتوافق معي خيرٌ ألف مرة من مجتمع عاد إلى قانون الغاب.

• • • •

شلش

(٨)

إذا توفر الأمان فكل الأحوال تصبح مقبولة، ويمكننا أن نجد فيها فسحة من جمال وسحر وشاعرية، حتى الصحراء يمكننا أن نتلمس فيها خصوصية وتميز لحظات تمرُّ عليها، تمكِّننا من أن نرى تلألأ النجوم على صفحة سمائها الصافية، ووضوح قمرها واتساعه، وتشكل وجهه.

كان شعوري بالراحة قد بدأ يزداد مع كل مسافة تمشيها السيارة المتجهة بنا إلى سوريا، وما أن عبرنا الحدود حتى لاحت تلك الابتسامات، وتعالت الضحكات على شفاه كل من يرافقنا.. لقد اجتزنا خط الحدود وكأننا اجتزنا خط الألم وخط الموت وخط القتل، كأننا أصبحنا في مأمنٍ من كل المخاطر... لماذا تأصَّلتْ بنا كل تلك الثقافة، حتى في أوقات سلمنا وأمننا، ثقافة أن نرى في تركنا للوطن والتغرب بعيدًا عنه، مع كل ما تحتمله الغربة من ألم ومعاناة، نراه راحة لنا وخلاصًا من عذاباتنا.. ولماذا تجعلنا الغربة في نظر أهلنا أكثر رقيًا وتطورًا، وتضيف إلينا ميزةً نتميز بها عن غيرنا؟.

كان السفر بعيدًا، فظهرت علينا مشقته، لكن إحساسنا بالأمان كان مريحًا.

وصلنا الشام... وكان عثورنا على مكان نسكن فيه سهلاً وسريعًا.. إن المال سلطة تجعلك مُهابًا في مواطن ضعفك، ومعروفًا وسط زحام الناس وكثرتهم، ويكون لك وطنًا في غربتك.

قضينا ثلاثة أيام نتعرف على البلد، ونتجول فيه، أخبرت (أفكار) بأنني أودُّ أن أجد لها عملاً تتسلى به في غيابي، ويؤّمِن لها عيشًا في حال كنتُ بعيدًا عنها.. كنت أريد أن أختبر ردَّة فعلها، كان موقفها يذكّرني بنفسي، الإصرار على الحياة، وتحدي المصاعب، وكأنها قد اتخذتْ القرار معي، قالت:

- أريد أن أعمل بائعة في محل ألبسة... أو أسواق...

صمتتْ قليلاً، ثم أردفتْ:

- أو في معمل خياطة.

بدأنا في صبيحة اليوم التالي بالبحث عن العمل، جُلنا مناطق كثيرة، وشوارع عديدة، دخلنا محلاتٍ وأسواق، سألنا عن عمل يصلح لفتاة، ووجدنا الكثير، لكن أغلبها لم يعجبنا وضعه، وقسمٌ منها لم نرتح لأصحابها، حتى وجدنا إعلانًا لمعمل خياطة يعلن عن حاجته لعاملات، لم يكن بعيدًا عن المنطقة التي نسكنها، وما أن التقينا صاحبة المعمل ذات النظارات الكبيرة والمدورة، والوجه الأبيض العريض، وكانت قد تعدَّتْ الأربعينات من العمر، والتي قدَّمتْ لنا جُملة من المغريات التي لم نكن نحلم بها، من مرتب جيد، وسكن ملحق بالمعمل، هو عبارة عن عمارة مخصصة لعاملات المعمل،

حتى اتفقنا على العمل فيه، خصوصًا أن هنالك عراقيات يعملن فيه... وفي صبيحة اليوم التالي انتقلنا للسكن هناك.

كان لابد لي من أن أتأكد من ملائمة العمل لـ(أفكار).. بقيتُ معها أياما، أوصِّلها، وأنتظر عودتها.. كانت مندفعة ومصرة على النجاح، وكنت أراها سعيدة مع ما يعتري وجهها من حزن أعتقد أنه ناتج عن ما مرَّ بها، وما ينتظرها من بُعدٍ وفراق عني، وخوف من تجربة بقائها لوحدها ومجابهة الأيام لأول مرة وحيدة.

طمأنتها إلى أنني سأرجع إليها بعد تصفية أموري جميعها، وأخبرتها أنني سأبيع ما أملك هناك وسآتي إليها ونعيش سوية حتى تنجلي كل تلك العواصف التي أحاطت بنا، وبوطننا، وحوَّلتْ أهلنا إلى وقود لنيرانٍ استعرت ملتهبة وعالية.. وأكَّدتُ لها أنني سأكون على اتصال دائم بها... كانت تبدو طبيعية، لكنني ما إن قلتُ لها أن تكون قوية وعاقلة وأن تعرف كيف تتدبر أمرها في غيابي؛ أجهشتْ بالبكاء واحتضنتني طويلاً.

مرَّ شهرٌ قبل أن أعود إلى الوطن، وبعد أن تأكدتُ تمامًا من امكانية أن تكون لوحدها، وقفتُ لأودِّعها، كنتُ أريدها أن تعتمد على نفسها في كل شيء، وأن تكون واعية مدركة لحالها الجديد... أحطتُ كتفيها بيدي، وقلتُ لها:
- ستبقين وحدكِ حتى أعود. أنتِ لستِ بنتًا قاصرًا، وأنتِ بنت متعلمة وذكية، وتستطيعين تدبر أمرك... وأنا لن أخشى عليكِ من شيء... فإن طالت غيبتي لأي سبب، أو أخذ الله أمانته... فأنتِ حُرَّة

في أن تعيشي حياتكِ بما يرضي الله... فلا تترددي في اتخاذ أي قرار ترينه صائبًا.. وتأكدي يا ابنتي أنني ومهما سيكون حالي؛ فسأكون مرتاحًا وراضيًا عنكِ إن أنتِ عشتِ حياتكِ كما تريدين.

بكتْ، وحاولتْ منعي من إكمال كلامي، لكنني أتممته لها، فشعرتُ بالارتياح.

وقبل أن أتركها؛ سلمتُها نقودًا حسبتُ أنها تكفيها لسنة، ثم قبَّلْتُها، فلم أستطع السيطرة حينها على دموعي التي انهمرت رُغمًا عني... وغادرتُ متجهًا نحو الوطن، وكأنني متجهٌ إلى غربتي.. كنتُ أريد أن أنهي كل متعلقاتي، وأن لا أترك شيئًا يجعلني أتركها مرةً أخرى.

وما أن وصلتُ بيتي، كانت كل الأمور، وما أراه في نظرات الجميع؛ تشي بأنهم اقتنعوا بكذب روايتي في أنني غسلتُ عارهم الذي لا تغسله منظفات العالم حتى لو صُبَّتْ كلها فوقه، كانوا مقتنعين تمامًا بأن أوساخهم لا زالت عالقة بهم، وأنني ضحكتُ عليهم.

بذلتُ كل جهدي كي أتمِّم ما جئتُ من أجله، لم يتبقَ لي غير إتمام صفقة بيع البيت مع مشترٍ أظهر رغبة في شرائه.... مررتُ إلى والدتي كي أودِّعها قبل أن تحين ساعة رحيلي في أية لحظة.. للأمهات حنينٌ يسع الدنيا كلها، بمآسيها ومصاعبها وجفائها.. بكيتُ كثيرًا بأحضانها، ورجوتها أن تسامحني على بُعدي عنها، وعلى

كل ما سبَّبْتُه لها من قهرٍ ولوعة... كانت وصيتها التي لم تفارق لسانها :

- أفكار.. أفكار... راعها واحفظها... كن أنت أمها وأباها.

عدتُ إلى بيتي.. وقبل أن أدخله؛ كانت (أم سامي) بانتظاري على الباب، سلَّمتْ عليَّ، فرددتُ سلامها ببرود، كانت حزينة، قالت:

- أرجو أن تسامحنا... فقد كنا سببًا في ما يجري لكم.

قلتُ لها:

- ليسامحنا الله جميعًا.

أردت أن أدخل البيت، لكنها أخرجتْ مظروفًا مغلقًا وناولتني إياه، قائلة:

- هذا من سامي... وقد ترجاني أن أسلمه إليك.. ولولا رجاؤه ما كنتُ أتجرأ أن أحضر إليك.

في البداية ترددتُ في أن آخذه، لكنني أردتُ أن أعرف ما بداخله، أردت أن أعرف ما سيقول.. سألتُها:

- أين هو الآن؟

بكتْ وقالت:

- الله أعلم... بعد الذي جرى له، لا أعرف أين هو وما جرى له منذ زمن... وقد كنتُ أنتظر عودتك لأسلمك أمانته وأرحل.

أخذتُ المظروف منها ودخلتُ البيت، وضعته في جيبي، أردتُ أن اتفرغ لقرائته بما يحوي من أوراق كثيرة أحسستها من لحظة

استلامي للمظروف.. وما أن انتهيت من تبديل ملابسي، أخذتُ المظروف وفتحته، وقبل أن أبدأ بقراءة الأوراق التي بداخله، سمعتُ صوت طرقات على الباب، ظننتها (أم سامي) عادت لتخبرني أمرًا أخر قد نسيتْه، ففاجأتني مجموعة من الشرطة أمام الباب، اقتادوني دون أن يسمحوا لي بطرح أي سؤال عليهم، ودون أن يفصحوا لي عن سبب اقتيادي. رجوتُهم أن أعود لآخذ هاتفي قبل أن أذهب معهم، لكنهم رفضوا وقالوا إنني لن أتأخر وسأعود بعد أن أجيب على بضع أسئلة عندهم.

الذي عرفته ما أن وصلتُ هناك، كانت التهمة نفسها: (أنت متهم بقتل ابنتك أفكار... فإن كنت تنكر ذلك دلنا عليها، أو على العنوان الذي تتواجد فيه... وإلا فإن لدينا شهودًا يثبتون جريمتك، وسنقدمك إلى المحكمة لتنال جزاءك عن جريمة القتل التي اقترفتَها).

أودعوني السجن. تحسَّستُ جيبي، فوجدتُ أوراق سامي التي نسيتُها، وبدأتُ بقرائتها.

• • • •

سامي

(العامل في ورشة تصليح الساعات)

(٩)

حضرة العم شلش المحترم...

السلام عليكم،

اسمح لي بدايةً أن أناديك (والدي)، فأنا منذ أن فقدتُ والدي رحمه الله في بغداد من جراء الأحداث الطائفية التي أذكى نيرانها المحتلُ اللعين، وأنا افتقد إحساس الأبوة، حتى التقيتُ بكم، لقد كان وجودكم قُربي يشعرني بالأمان، حتى ليخيل إليَّ للحظات أن أبي لم يمت، وأنا على يقين من أنك لن تمنعني من ذلك، وبهذا اليقين سأستخدم هذه الكلمة دون أن أسمع منك الرد.

والدي العزيز... لقد قرَّرتُ أن أكتب إليكم هذه الرسالة لأنني بدأتُ أشعر أنني لن ألتقي بكم ثانية، وأرجو من الله أن تصلكم هذه الرسالة التي سأُبيِّن لكم بصدق كل ما جرى من أحداث بعد أن اعتقلتكم قوات الاحتلال، خشية أن تصلكم صورة عنها مجافية للحقيقة، وسأكون واضحًا وصريحًا جدًا في سرد الأحداث، ولن أُخفي منها شيئًا، مع أنني أعلم أن فيها أمورًا شخصية تخصني وحدي، وأمورًا أخرى تخصك أنت، وقد لا يصح ذكرها لك مني

بالذات، لكنني كما أسلفتُ اعتبرك والدي ولن أتحرج من كل هذه الأمور، وأنا على يقين أنك ستتفهم حالي جيدًا.

لا أعرف كيف أبدأ، لكني لن أذكر لك تفاصيل حالي والأحداث الكثيرة، وما جرى لي قبل فترة اعتقالك، فكل أموري كانت معروفة لك وسبق أن رويتُ معظمها لك عندما كنا نعمل سوية في ورشة تصليح الساعات، من قصة مقتل أبي، وتهجيرنا من بيتنا في منطقة السيدية في بغداد، ومرورًا بانتقالنا إلى مدينتكم التي وجدنا فيها بيتًا على مقربة من بيتكم، أجَّرناه بجهودكم وجهود الناس الطيبين معكم، لنسكن فيه أنا ووالدتي، ومن ثم قبولك لعملي معك في ورشة تصليح الساعات على باب داركم، تلك المهنة التي علَّمتني الكثير من الدقة والصبر والتركيز.

والدي العزيز... بعد اعتقالك مباشرة ساءت الأحوال كثيرًا، وتبدلت معاملة الكثير من الناس معي، كانوا بوجودك في المحل عندما يحضرون لإيداع ساعاتهم أو أخذها بعد تصليحها، كنت أشعر بجزيل احترامهم، وأحيانًا يلسعني إشفاقهم، ولم تمر أيام بعدها حتى صرتُ أشعر بحنقهم تجاهي، طبعًا ليس الجميع، صارت نظرات القسم منهم تشعرني أنني أخذتُ حقًا من حقوقهم، لكن أكثرهم عداءً لي كان ابن أخيك منَّاع، كان لا يألو جهدًا في مضايقتي ومحاولة الإضرار بي، والتي وصلت حد الاعتداء الجسدي ومحاولة التخلص مني بطريق البلاغات الكاذبة التي يقدِّمها ضدي.

أذكر يومًا كنا في المحل فسألتك عن سبب تلك النظرة غير المفهومة التي يرمقني بها منَّاع كلما رآني، ولطالما تذكرت بعدها إجابتك حينها: (لا تهتم له، هو رجل حقود، وحرامي). سألتك حينها مستغربًا: (حرامي؟)، فأجبتني: (كان مسجونًا قبل الاحتلال، لأنه اختلس أموالاً، ونهب وسلب معسكرات الجيش بعد دخول جيوش المحتل بأيام... إنه ذئب بهيئة بشر، حتى القتل لا أبرئه منه... لكن لا تخف منه... فقط تجنبه، وطالما أنا موجود فلن يجرؤ أن يقترب منك).

وصدقت حينها، فهو لم يجرؤ أن يقترب مني عندما كنتَ موجودًا، لكنه وبمجرد أن غبتَ، بدأت أفعاله الشريرة ضدي... لقد كانت أعماله ومكائده وخبائثه ضدي كثيرة، لكن أهمها؛ وهو ما أريدك أن تعرفه أنت مني؛ كان يخص ابنتكم (أفكار)، وكما وعدتكم وقررت مع نفسي قبل ذلك أن أكون صادقًا معكم في كل كلمة أخبركم بها، فإن لهذا الموضوع قصة لابد لك أن تعرفها كي تتفهم الموضوع برمته.

• • • •

سامي

(١٠)

بدأتْ القصة عندما أيقنتُ مع نفسي أنَّ خير من يشرفني التقرب منه هو أنتم، وبعد كل ما لقيته منك من ترحاب وسعة صدر جعلني أشعر بأبوتك تجاهي، فقد أحسستُ بمقدار المسؤولية الملقاة على عاتقي في الحفاظ على كل ما يخصك بعد غيابك، وكانت الورشة أولها، وبيتك ثانيًا، ثم (أفكار) ابنتك.

إن التركيز على أمرٍ أو إنسانٍ والاهتمام به وجعله من مسؤولياتك ينشئ رابطة من نوع خاص بينك وبين هذا الشيء أو الإنسان، تجعلك تفكِّر في استملاكه، وهو ما حصل، لقد نشأتْ علاقة أساسها القيام بالواجب بيني وبين (أفكار)، الواجب بالمحافظة عليها قدر ما تسمح لي به الأعراف وتقاليد المجتمع، بإشعارها وقوفي إلى جانبها خلال غيابك، واستعدادي لتنفيذ ما تطلبه مهما كان.. ولم تلبث هذه العلاقة أن تطورت بفعل كون ابنتكم مثال للتربية والثقافة وما منحها الله من جمال، تطورت هذه العلاقة بسرعة لتصبح حُبًّا جارفًا جعلني أعدُّ الدقائق والساعات منتظرًا عودتك كي أطلب يدها منك، وناسيًا العيون التي تترقبني وتراقبها.

ولأن الإنسان خطاء، فقد اخطأت، نعم، وأرجو منك رجاء الابن لأبيه أن تسامحني على خطأي ذاك، مع أن خطأي بسيط لم يتعدَ الاحتفاظ بصور التقطتها لـ(أفكار) في إحدى المرات عندما مرَّت بي لتسلِّم عليَّ، تلك الصور التي اعتقدتُ أنها ستطفئ نيران لوعتي واشتياقي لها بانتظار حضوركم الذي ما عاد يحصل.

وللحقيقة والأمانة فإن (أفكار) بنتٌ ذكية، وأبيّة، ولا تسلِّم نفسها أبدًا، فهي لم ترضَ أن أصورها، لكن إلحاحي وتوسلي بها جعلها تسكت بشرط أن أمحو تلك الصورة بعد يوم أو يومين، ولم أكن أفطن أن هنالك عينًا تتربص بي لتسرق هاتفي والصور التي فيه.

لقد بنوا على تلك الصور قصصًا وخيالاتٍ كثيرة الله يعلم وهم يعلمون أيضًا أنها كلها كذب واتهامات باطلة... وثارت ثائرة حُماة الشرف وهم كل ليلة تدوس شرفهم البساطيل العسكرية ولا يتحركون لردها.

كان لابد لي من أن أهرب من أمامهم، لقد أجَّجوا غير العارفين بالحقيقة ضدي.. هربتُ، ويا لسوء تقديري، وجُبني، تركتُ (أفكار) وحدها، وما كنتُ أعرف أن هروبي ذاك كان هروبًا من نفسي أنا التي لم أعد أجدها، لم أكن أعرف أنهم عندما أثاروا كل تلك الضجة إنما أرادوا لي الهرب، ليتخلصوا مني وليستفردوا بـ(أفكار) لوحدها، ومذ ذاك اليوم وأنا متخفي... حتى جاء اليوم الذي قررت فيه الخروج والمواجهة.

عدتُ فخرجتُ، وابتدأتْ المواجهة من جديد، وللحقيقة هي هجوم من طرف واحد ضد آخر ليس بيده القدرة حتى للدفاع عن نفسه، لم يكن لدي أية قوة أو سلاح أواجه به أضدادي.. وبعد يومٍ واحدٍ فقط من عودتي؛ أُلقي القبض عليَّ من جهة لا أعرف ما هي، جهة كانت ترتدي لباس الشرطة، وتتكلم كلامها، إلا أنها لم تكن منها، كانوا جُزءًا من الشرطة لكنهم لا يخضعون لقوانينها.

ومن هنا ابتدأ فصلٌ جديدٌ من فصول الانتقام الذي لطالما أحسستُ به في عيني (منَّاع) ذلك الوحش الذي بتُ أشعر به يتواجد في كل لحظة من لحظات العذاب الذي عشته، مع أنني لم أره، كان موجودًا في أصوات ووجوه كل من عذَّبني أو حقَّق معي، وكانت التُهم الموجهة ضدي جاهزة وواضحة الهدف، كانت ترسم للتخلص مني، بدءًا من الإرهاب ومرورًا بالاحتفاظ بالأسلحة والمتفجرات، والقنص والسرقة والسطو وقطع الطريق. كانت كل تهمة منها يمكن أن تودي بي إلى الإعدام، لكنهم وكما أخبرتك لم يكونوا يريدون إدانتي ليحيلوني للقضاء فيحقق معي ويصدر حكمه بي، بل كانوا ينوون إجباري على الاعتراف بتلك التهم ليسلموني لقوات المحتل كي تقوم هي بما يريدون.

• • • •

سامي

(١١)

لن أطيل عليك في التفاصيل.. فبعد تعذيبٍ شديدٍ، وتحقيق جُله الضرب والصعق الكهربائي؛ لم يستطيعوا أن ينتزعوا مني شيئًا، ليس لأنني أنكرتُ؛ بل لأنني لم أفعل أيَّ أمرٍ اتهموني به، وقد عرفتُ فيما بعد أنهم قرَّروا إزاء هذا الأمر أن يتخلصوا مني.. هم قالوا لي، جاءني أحدهم بعد جلسة عذاب طويلة، كان كمن يريد ان يستبرئ ذمته مني، قال :

ـ ما دمتَ لم تعترف بأي عمل يمكننا به أن نسلِّمك للأمريكان، فنتخلص منك، فأنت تجبرنا على أن نتخلص منك بطريقتنا.

قلتُ له :

ـ وماهي طريقتكم ؟

ـ سنشدك إلى قطع إسمنتية ثقيلة ونرميك في النهر.

وكنت قد سمعت قبل اختطافي عن العثور على أشخاص موثوقين إلى كتلٍ إسمنتية ومرميين في نهر دجلة، لكنني لم أرَ تلك الجُثث ولم أكن أريد رؤيتها... سألتُه :

ـ لكن لماذا ؟...

ـ كان لابد لك من أن تختفي من هذه المنطقة.. أن تذهب فلا تعود... لقد زاحمتَ أناسًا مؤثرين، وهم يريدون التخلص منك بشكل نهائي.

ـ لكنني لم أزاحم أحدًا على شيء، ولستُ ممن يسعون لمنصب أو جاه أو مال.

ـ أنت تعرف جيدًا ما الذي زاحمت عليه.. وهكذا هي الأوامر لدينا.
ولم يزد على كلامه هذا شيء..

ولأنني لم أزاحم لنفسي على شيء قط سوى (أفكار)، عندها أيقنتُ بشكلٍ مؤكد أن ما جرى كله كان من صنع (منَّاع).

توسلتُ ذاك الشخص أن يساعدني طالما هو يعرف الحقيقة... عندها نظر إليَّ نظرة فهمتُ منها أنه بدأ ينحاز نحوي، ثم قال :
ـ لنرى كيف ستجري الأمور.

في اليوم التالي حضر نفس الشخص، لا زالت نبرة صوته لا تفارق مسامعي، قال :
ـ لقد حانت ساعتك.

لم أفهم حينها مقصده، سألتُه :

ـ أتعني ساعة التخلص مني ؟

انتظر للحظات كنتُ أشعرها ساعات، قال :

ـ ساعة خلاصك.

جروني بعدها إلى مكان التعذيب، قيدوني بإحكام وربطوني إلى الأرض.. في البداية اعتقدتُ أنهم سيقطعون رأسي، كانت عينيَّ معصوبتين.. توسلتُ إليهم، وبكيت، حلفتُ لهم بكل المقدسات أنني بريء.. كانوا كمن لا يسمع ما أقول، اعتقدتُ للحظات أن صوتي لا يصلهم، رفعت صوتي أكثر، ركلوني بأرجلهم، وعندما ربطوني تذكرتُ طريقة تخلصهم من أمثالي، تصورت نفسي أغوص في قعر النهر مع كتلة إسمنتية كبيرة.. لكنني تحسستُ بيدي المربوطتين الأرض، لم تكن هنالك كتل إسمنتية، كنتُ مربوطًا إلى الأرض، التصورات تتوالى مسرعة في الاخطار، والدماغ يكون في أوجِّ نشاطه، كنت أريد أن أتعرف على ما ينوون فعله بي، أحسستُ بأحدهم يقترب مني، سكنتُ منتظرًا ضربته، اقتربتْ أنفاسه من أذني، شعرتُ بحرارتها، قال في أذني: (سأدعك تعيش).. سكتَ للحظات، ثم أردف: (ميتًا...)، كان صوته هو، نعم أنا متأكد منه، كان صوت منَّاع، في خضم تلك الأحوال وما أتعرض له حاولتُ أن أفهم مقصده، كانت محاولات سريعة جدًا.. تساءلتُ مع نفسي: (كيف سيتركني أعيش ميتًا).. كانت الإجابات تمرق في ذهني بتدافع، (سيفقأ عيني.. سيقطع رجليَّ ويديَّ.. سيغتصبني.. سـ...).

ضربة قوية جاءتني أفقدتني شعوري، صحوتُ بعدها مرميًا في المستشفى، كانوا قد فعلوا فعلتهم وتركوني أعيش... ميتًا.

• • • •

سامي

(١٢)

الأيام التي قضيتُها في المستشفى كانت من أقسى الأيام وأصعبها، ليتهم كانوا قتلوني لتنتهي عذاباتي، لم يكن لي ذنب سوى أنني أحببتُ من اختار قلبي ووافق عقلي.

كانت أمنيتي أن أجد منَّاع، تصورتُ نفسي مراتٍ وأنا ألوكُ لحم جسده بين أسناني، ومراتٍ أخرى أتلذذ بتعريضه لنفس الفعل الذي عرَّضني إليه.. كنتُ كتلة ملتهبة من الحقد واليأس والرغبة في الانتقام.

استرجعتُ كل ما جرى لي، منذ مقتل أبي، وتركنا لبيتنا في بغداد وتهجيرنا، تذكرتُ (أفكار) وما جرى لك ولها، تذكرت نظرات منَّاع الحقودة، استرجعتُ لحظات العذاب التي مرَّرتُ بها كلها، كان كل ما جرى من مآسٍ وأحداث مرعبة سببه واحد: هو المحتل وفوضاه التي أوجدها، ليخلق منها وضعًا جديدا يناسبه، هو من أدخل البلد إلى دوامة الجحيم، وهو من حوَّل منَّاع وكُثر غيره إلى ذئاب تنهش لحم أهلها، هو من ساند القتلة والسُرَّاق والمجرمين وأفسح الساحة لهم وحماهم ليحيلوا البلاد إلى ساحة قتل وانتقام ويفرِّقوا أهلها إلى طوائف ومِلل يخافون بعضهم.

أيقنتُ أن الجميع كانوا ضحية خِطط المحتل ونظرياته الخبيثة، هو من دفع الحَمَل ليكون ذئبًا، كل ما جرى كان بمعرفتهم، وهم من خطَّط للوصول إلى هذا الحال، الكل ضحايا، القاتل والمقتول، حتى منَّاع كان ضحية من ضحاياهم.

ومع كل ما بي من ألم ويأس، ورغبة جامحة للانتقام، أشعرتني حقيقة ما نتج عن تفكيري هذا بالارتياح قليلاً، أعطتني السبب لأعذر كل من آذاني، حتى منَّاع لم أعد أشعر بذاك القَدْر من الحقد عليه.

كراهيتنا على من آذانا وحاول أن يقتلنا كبيرة، لكن الأكبر منها هو حقدنا ورغبتنا في الانتقام على من خطَّط ودفع ليجعلنا هدفًا لمن حاول أن يؤذينا أو يقتلنا.

لقد استجمعتُ أحقادي كلها، مع أنني لستُ حقودًا ولا حسودًا، ولابد أنك خلال تعرفنا على بعض قد لمستَ هذا، لكن عدوك يمكن أن يدفعك لتكون حقودًا، كما دفع منَّاع وأمثاله ليكونوا قتلة ومجرمين، ألم أقل لك إننا كلنا ضحايا... استجمعتُ كل نتائج فقدان الأعزاء؛ وهل أعزَّ علينا من آبائنا وأمهاتنا؛ ونتائج التهجير والتعذيب والتشريد والإهانة والإحساس بفقدان الكرامة، وما أنتجه كل هذا من أحقاد لتنصبَّ كلها مع ما كان راسخًا قبلها من أحقاد صوب المحتل وجيوشه وقواته.

لقد تحولت رغبتي الجارفة بالانتقام من الأدوات إلى مستخدمها، ومن المنفِّذ إلى المخطِّط، ومن المدفوع إلى الدافع، وصارت قناعتي راسخة من أنني لابد أن يكون لي موقف من كل ما جرى لي ولأهلي ووطني.

وطالما أنهم اتهموني تُهمًا لم أقترف أيًّا منها، ولم أفكِّر بها حتى: الإرهاب، الهجوم على القوات (الصديقة)، إنشاء مجاميع للمقاومة، قنص جنود المحتل.. ولأنني نلتُ الجزاء وأكثر عن القيام بها، فإذن هي أصبحتْ حقًّا لي، يجيز لي أن أقوم بها، لكنني أفكِّر في أنني لابد من اختار واحدة منها، فليس لي القدرة على القيام بها كلها، وهم لن يسمحوا لي بإتمامها، ولذا اخترتُ واحدة منها تجمعها كلها، أو تحدث بهم ضررًا يمكنه أن يجعلني آخذ منهم شيئًا يثقل كفتي في الميزان مقابل ما أخذوا في كفتهم التي أثقلوها كثيرًا بما أخذوه، وطني، أهلي... ونفسي.

• • • •

سامي

(١٣)

إنني إذ أكتب لك هذه الكلمات؛ إنما أنا على يقين من أنني لن أراكَ ثانية، فإذا ما أتممتُ خُطتي في الانتقام لنفسي ولوطني ولأهلي... ولكما أنت و(أفكار)، سأكون قد أفسدتُ ما أوصلوني إليه، في أن أعيش ميتًا، وسيكون عزائي أنني أخذتُ موقفي الذي لم أفكِّر أن آخذه مع كل ما جرى لي، حتى دفعني المحتل إليه دفعًا، وسيكون عزائي أيضًا أن تكون أنت و(أفكار) بخير.

كنتُ أسمع بين حينٍ وآخر عما جرى ويجري لكما بسببي، لقد علمتُ بما جرى لـ(أفكار) من محاولات لوأدها بعد أن رفضتْ أن تستجيب لأغراضهم أو أن تسايرهم، وتمنيتُ كثيرًا أن أذهب إليكما وأقف معكما، أن أساعدكما وأن أكفِّر عما سببته لكما، وأن أكون قريبًا منكما؛ حتى لو لساعات، لكنني كنتُ أعلم جيدًا أن حضوري سيزيد الطين بلة، وسيفقدني فرصتي في أن أدافع عنكما وفق الطريقة التي اقتنعتُ بجدواها.

إنني أعتقد جازمًا أنك تعرف أن ما جرى ويجري لكما قد يكون السبب الظاهر منه أنا، لكنك تعلم جيدًا أنه إنما تمَّ استخدامي أداةً للنيل منك ومن (أفكار)، مثلما يستخدم الكثيرون رغمًا عن إرادتهم، ليزداد عدد الضحايا يومًا بعد يوم.

لازال حلمي في أن أتقدَّم إليك وأطلب يد (أفكار) منك يراودني، أن أعيش بينكم، وإنني أقسم بالله أن هذا الحلم لم يفارقني حتى هذه اللحظة، لكنني اليوم أعلم جيدًا أن لا جدوى من كل ذلك، فهل سترضى (أفكار) برجل يعيش وهو لا حياة فيه يمكنها أن تدفع بالحياة لتستمر، وحتى إن هي رضيت، فكيف لي أنا أن أرضى.

إنني إذ أكتب لك هذه الكلمات إنما أردت أن أودِّعكما، وأحببتُ أن تعرفا أنني دافعتُ عنكما بروحي التي أبذلها سخية كي يُزال كل هذا العذاب والخوف من على كاهلكما، ولتهنئا بحياة ملؤها الطمأنينة والسلام.

قبل أن أنهي رسالتي هذه أرجو منك أن تسامحني، وأن تسامح كل من آذاك، وأطلب إليك طلب ابنٍ لأبيه أن ترعى (أفكار)، وأن لا تلومها على شيء، فهي ليست ملومة.

وفي النهاية تقبل سلامي لكم جميعًا.

• • • •

أفكـار

(الابنة)

(١٤)

قبل الحب بقليل، تأتيك إشاراتٌ، وتدقُّ نواقيس لم تألفها مسامعك، ترتبك أنظمة الجسد، فيدبُّ الهرج بين الأعضاء، دقات القلب تتراكض مسرعة، في هاوية اللذة تستعجل القلب وقوعًا، الأنفاس تعلو جاهدةً، تستنهض الرئة لتمدد القلب حاجته في صيرورته الجديدة، أعضاء اللاوعي تفقد لا وعيها وتتبع وعيًا يلزمها، تتقافز مستبشرة بأفول تجاهلها، كخلايا نائمة في تنظيم سرّي هبَّتْ لنداء زعيمها لتنفِّذ ما وجب عليها.

ثورة.. أو ربيع، يعصف جسدي، قلبي يعلن ثورته، يخرج على حاكمه، ويكاد عقلي أن يفرَّ طالبًا اللجوء في جسدٍ آخر، أكثر من عقدين خلت وهو يأتمر جسدي كله، لم يألف مخالفة يد أو لسان، حتى قلبي في استقلاليته اللا واعية كان يسلم أمره لأحكام العقل الأزلية، أما اليوم فهو غير، مذ مشت عيناي على تضاريس وجهه، ولامس ناظري ناظره.

كان يكتب شيئًا يمليه أبي عليه، دخلتُ أستأذن في أبي الذهاب إلى جدتي، رفع نظره صوبي، أحسستُ أن قلبي صار يثور، أو ليس

العاشق ثائرًا؟... اليوم أيقنتُ أن العشق ثورة، وأن الحب نظام جديد يغيِّر كل ما قبله.

جاء مدينتنا من بعيد، من مدينة تحلم بها المُدن في نومها، وتبقى تجتر حلمها طيلة يومها، عسى أن تعيش ليلة واحدة من لياليها الواحدة والألف.

- أفكار... ابنتي...

يشير أبي بيده نحوي ليعرِّفه بي، ثم يكمل :

- سامي... ابن جارتنا أم سامي...بيتهم نهاية شارعنا...

يشبر أبي إليه ثم إلى نهاية الشارع...

- سيعينني في ورشتي ويناولني حاجتي من أغراض دقيقة لم يعد نظري يفرق بينها.

كانت تلك بداية تعارفنا، ليبدأ بعدها الإعجاب يغلِّف نظراتنا، ولننشر أشرعة الحب عاليًا، بعد أن عيل صبرنا في البقاء راسيين على الشواطئ، انطلقنا لا يسعنا فرح، مبهورين، وخائفين، مثل طفل يدخل المدينة أول مرة، متعجلين اكتشاف دواخلنا، ولهفتنا تسابق خوفنا وتعلو عليه، لنبدأ إبحارنا في بحرٍ لا شاطئ له نرسو عليه.

أيكون القدر رماك في دربي، أو رماني على دربك؟... ليكون ما يكون، وهل سيكون القدر بمستوى مسؤوليته، فيضمن لنا أن نصل إلى ما نصبو إليه.

ويوم بعد آخر كنتُ أشعر أنك قدري، وكنتُ أرى في عينيك ما أشعر به يلامس شغاف قلبي، كانت نظراتك تقول إنك تبادلني شعوري، وكان تواجدك مع أبي كل يوم يشعرني بقُربك مني، ولم أكن أدري أن تواجدكما اليومي سوية على مقربة مني، كان يوشك أن ينتهي.

لا زلتُ أذكر تفاصيل ذاك اليوم بحدية بالغة، يوم غاب ابي، وكأن ذاكرتي شريط مصور من كل الزوايا، حتى الحلم الذي راودني قبل صحوتي أذكره وكأنني عشته واقعًا، لتتلاحق الأحداث التي لم تبارح ذاكرتي يومًا.

فريسة تتجاذبها الأيادي بين خصمين، ابن عمي (منَّاع) المدعي لحبي والمتمسك بفكرة الزواج بي، الذي يكبرني بسنين كثيرة، والمتزوج وله أطفال، وخصمه (سامي) العامل في ورشة أبي، ذاك الشاب ذي البشرة البيضاء والطول الفارع، المتأنق دومًا، الذي أتانا من بغداد مُهجَّرًا بسبب الاقتتال الطائفي الذي أيقِظ هناك... الخصمان يقفان وجهًا لوجه، وأنا أقف بينهما، كلٌّ يجذبني نحوه، منَّاع يقبض بقوة على يدي، يسحبني نحوه، أتألم، أرنو صوب سامي بعيون ملؤها الألم، عيون تستحثه على الإمساك بقوة، على عدم تركي بين يدي منَّاع.. تتجاوب قبضة يده مع نظراتي، يتمسك بثيابي، ينتزعني منَّاع فيشق ثوبي بيد سامي ويظهر كتفي، أحاول تغطية ما فضح منه بين شد وجذب يمنع ستره، وفي لحظة اندهاش لما بان من جسمي بينهما يتناول منَّاع عتلة تشبه مفك براغي

الإطارات، لا أعرف من أين أتى بها، يهوي بها على رأس سامي، أحاول صدها لكنها تتجاوز كفي وترتطم برأس سامي، صوت الارتطام يضج مدويًا، يجتاح كياني، أقفز عاليًا، أجدني أقف وحيدة فوق سريري، ضوضاء تتعالى وأصوات اعتدنا سماعها لجند المحتل عند إصابتهم، أعود مسرعة أتكور بين طيات فراشي، أحاول أن أستجمع وعيي، أن أحيط بما يجري من حولي، سعفة تضربها العواصف أشعر جسدي، يحضر أبي مسرعًا، يحتضنني فتخف نوبة الخوف المتسيدة على شعوري :

- اهدئي يا ابنتي.. لا تخافي، أنا جنبك.. لا تخافي.

يحاول أبي تهدئتي، ثم يزيد :

- سيرحلون سريعًا...لا تخافي.

يمرُّ الوقت بطيئًا، أصوات الجند تنخفض تدريجيًا، بينما يتعالى هدير محركات عجلاتهم، يطلب مني أبي أن أنقل فراشنا إلى غرفة المعيشة، هدير المحركات يتباعد بينما أكمل نقل الفراش، يتمدد أبي على فراشه، أعود لأتكور على فراشي وبقايا تأثير ما حصل لا زالت متمسكةً بين دواخلي، أغمض عيني علّ النوم يقبل عودتي، أفكار وهواجس ظلت تلاحقني، تنقلني من صوب إلى صوب :

ترى ماذا يريد منَّاع مني، كيف السبيل معه، حتى في المنام يلاحقني.. هو لا يحبني، أنا أعرف جيدًا، وهو حتى لا يعرف معنى الحب... فكيف به يحبني، إن من الأجدر به أن يعتني بعائلته... والأهم أنني لا أحبه، ومع ذلك هو يصرُّ على أن يتزوجني...

وسامي، شاب، ما أن تراه تعرف أنه خلوق، هو يخاف عليَّ.. وكأن الصورة معكوسة، ابن عمي يحاول أن يؤذيني والغريب هو من يحميني.

الهدير يعود، أصوات تتعالى، طائرات تحوم، جسدي سعفة نخيل يبست، انظر صوب أبي أجده ينظر صوبي وعيونه تحاول طمئنتي، انفجار يجلجل أركان البيت، يتدحرج أبي نحوي، يحتضنني، جندٌ سحنتهم سوداء وبنادقهم تمتد بين عيوني، صراخ وصياح، يمتلأ المكان عيون تنظر بقسوة:

- Don't move…

صراخهم يحيط بنا: Don't move…

- (ابنتي... انها ابنتي..) يصرخ أبي، يدفعني خلفه، يديه تحاول إبعادهم عني متخللة فوهات بنادقهم.

- shut up, and don't move

الجندي يصرخ عاليًا، أيادٍ تتلقف كل شيء وترميه أرضًا، جنود كُثر يجوبون غرف البيت يبحثون عن شيء ما، يكاد قلبي يخرج من صدري، الخوف يقتلني، أبكي وأبكي، أبكي خوفا على أبي.. جندي يجر أبي، أمسكه بيدي، يجر أبي وأنا معه متمسكة بثيابه :

- اتركوا أبي أرجوكم...... لم يفعل شيء...

أصيح، أتوسل بهم، يفلتون ثوب أبي من يدي ويدفعوني للخلف، وبنادقهم تكاد تلامس وجهي :

- Don't move… sit.. and Don't move

يسحب قسمٌ منهم أبي خارجًا، يلحقهم الباقون متتالون، صراخي يتبعهم :

- اتركوا أبي... اتركوا أبي يا مجرمين...

يتأكدون أن لا شيء في البيت يهمهم، يخرجون تباعًا، هدير عجلاتهم يتعالى، يتباعد، السماء تبتلع هدير الطائرات، السكون يعمُّ، أجد نفسي وحيدة، لازلتُ على فراشي، رجلاي لا تقوى على حملي، ابكي وأتألم : (أبي... آه يا أبي..).

يفاجئني عمي سليمان بدخوله، أحاول أن أنهض، يجثو قربي ويحتضنني...

- أبي... أخذوا أبي.. أخذوا أبي يا عم...

أصيح ونشيج بكاء يأخذني، بينما تتجمع نساء ورجال الحي بعد ما تأكدوا من ذهاب الجند.

- لا تبكي... سيفرجون عنه... سيتركونه... لن يؤذوه.. لا تخافي.

يحاول عمي تهدئتي.

تدخل جدتي ماشية بصعوبة وهي تنوح :

- آه يا شلش.. آه يا ولدي... المجرمون، السفلة... ماذا تريدون منه... رجل مهتم بحاله، الذي به يكفيه.

تحتضنني جدتي، أحتضنها بقوة ويبدأ بكائي من جديد.

- هيا... اجمعي ملابسك وما تحاجينه لتذهبي مع جدتك، فليس من المعقول أن تبقي في البيت... قال عمي سليمان موجهًا كلامه إلي.

- والبيت كيف اتركه؟.. لقد حطموا الأبواب وحطموا كل ما فيه... أجبت ونشيجي يلاحقني.

- سأبقى معها في البيت حتى الصباح... تقول جدتي.

- سأجلب من يصلح الأبواب. رتبي أغراض البيت لأنك ستنتقلين مع جدتك وتبقين عندها حتى يعود أبوكِ بخير.

- إن شاء الله... أجبتُ ودموعي تنهمر.

نهضتُ استطلع البيت، حطموا كل شيء، نزعوا الأبواب الداخلية، ولا وجود للباب الخارجي... رتبتُ قسمًا من أغراض البيت ثم عدت إلى جدتي :

- كيف وصلتِ إلينا؟... هل جئتِ ماشيةً؟...

سألت جدتي التي طالما اشتكتْ من عدم قدرتها على الحركة، هي امرأة طاعنة في السن وتعاني أمراض عدة... قالت:

- وكيف سأبقى؟.. العالم كله عرف أن الأنذال دخلوا بيتكم.. جئت راكضة بمجرد ذهابهم، كان قلبي يشتعل نارًا.. آه يا ولدي، آه يا شلش.

أعدتُ قِسمًا من أثاث البيت إلى مكانه، وبعد طلوع الشمس جاء عمي سالم بحدَّاد ومجموعة عُمَّال وضعوا بابًا آخر وأصلحوا ما تضرر بما يضمن غلق الدار... حضر سامي إليهم بعد أن أصلح ما يستطيع من أبواب الورشة التي كانوا قد دخلوها ورموا أشياءها هنا وهناك، رآني فتقدم نحوي :

- الحمد لله على السلامة، عرفتُ بما جرى وحضرتُ، لكنني لم أستطع الدخول، كان الوقت لا يسمح... سيفرجون عنه قريبًا.

قال سامي بعد أن تأكد من عدم وجود أحد قُربي... ثم أضاف :

- سأتدبر أنا أمر الورشة لحين عودته... اعتمدي عليَّ.

- أشكرك، سأذهب مع جدتي وسأمرُّ عليك بين حينٍ وآخر.

- لا تخافي، ستسير الأمور على ما يُرام وسيعود الوالد قريبًا.

- شكرًا سامي.

رجع سامي إلى المحل، وعدتُ أنا لأكمل ترتيب ما تبقى وأذهب مع جدتي.

• • • •

أفكار

(١٥)

الحبُّ يملأ الشواغر، ويسدُّ الفراغات، ويمنحنا القوة لمواجهة الحياة ومصاعبها، يجعلنا نستهون المصائب، ونتحدى الموانع، لنواصل الحياة.

كان غياب أبي موحشًا، وتغَير تفصيلات حياتي مرهقة، شعرتُ للحظات باستحالة استمرارية الحياة، لكن عزائي آنئذٍ أن قلبي لم يعد يتبع عقلي وما يرتسم بين تلافيفه من رؤى سوداوية، كان قلبي كبيتٍ جديدٍ يوشك أن يُسَلم لمالكه، كان ينشغل بتأثيث دواخله ليستوعب ساكنه الأول، فتطلُّ النظرات إليه بين فترة وأخرى متأكدةً لئلا ينقص اكتماله شيء.

ويومًا بعد آخر مُلئ الفراغ، صارت أيامي تنقضي بين بيتنا الذي أقضي فيه معظم النهار وبيت جدتي الذي صار محل سكناي ومبيتي. وكان سامي قريبًا مني في النهار عندما أكون في بيتي، ولم يبتعد عن قلبي ومخيلتي في الليل عند جدتي، كانت رؤيته تهوِّن عليَّ كل غياب، وعيونه تمنح الأمل بإمكانية تغير الأحوال... ويومًا بعد آخر وجدتني أغرق في بحر حبه الذي صارحني به بعد أسابيع.

ذلك الصباح كان مختلفًا، هكذا كان شعوري لما مررتُ به، كان يتأرجح على حافة الاعتراف، عيونه تترقب لحظة القفز إلى الهاوية، هاوية الحب التي نخافها ونستمتع بعذاباتها.. وعند الظُهر، عندما عدتُ إلى بيت جدتي، أشعرتني نظراته بلحظة الانعتاق من الحمل الثقيل الذي ينوء بحمله، وأحالتني بلحظة إلى أعماق الشعور بجمالية الأشياء من حولي، قال :

- إن احتجتِ لشيء فلا تترددي أن تطلبيه مني...

كنتُ أقف بباب الورشة.. ثم أردف :

- أنا أعرف أن أعمامك وجدتك لن يقصِّروا معكِ بشيء.. لكنني أحتفظ لكِ في نفسي بمكانة خاصة وأريد أن أرعى هذه المكانة لكِ.

يومها شعرتُ أن الدنيا لا تسع فرحتي، تغير مرأى الأشياء في عيني كانت تشع بالجمال.. اعتبرتُ كلامه هذا تصريحًا بالحب.

بحر الحب واسع، وما أن تنشر أشرعتك فيه؛ تأخذك الرياح إلى أعاليه، وساعة بعد أخرى تجد نفسك في لُجته، وعندها تكون كل الطُرقات ذهابًا، فلا رجعة فيه إلى المكان الذي أبحرتَ منه.

ويومًا بعد آخر كنتُ أستعجل الليالي مرورًا كي يصل الصباح، وعندها تحين لحظات رؤياه، هي لحظات لا غير، لكنها كانت كافية لتطفئ نيران روما التي أشعلها نيرون، كان انقضاء تلك اللحظات،

وما نتبادل من كلمات قليلة، يجعلني أبدأ من جديد بانتظار صباح آخر جديد.

قال :

- إنني أنتظر رجوع والدك بصبرٍ يكاد ينفذ.

قلتُ له مشاكسة :

- هل عرفتَ الآن أنك لن تستطيع تمشية أمور الورشة لوحدك.

تحولت تعابير وجهه من الجدية إلى المرح، قال :

- بل إنني لم أعد أتمكن من أن أتحكم بقلبي، لقد صار يعمل بسرعة، ولا يضبطه زمن، وأريد عودة أبيكِ كي يضبط دقاته، ويعيد إليه توازنه.

أتراك تعلم أن قلبي هو من يتحكم بي، لقد فرض سيطرته، وأعلن رئاسته، ويا لسعادة أعضاء جسدي الأخرى التي ركضتْ متسابقة لتحظى برضاه وتنال بركاته، ناكرةً فضل عقلي الذي فقد صرامته، ومنطقه الذي يفرضه عليها، وأصبح مترددًا في أن يتخذ أي قرار.

طلب مني راجيًا أن أعطيه صورتي:

- أريد صورتك، أتطلع إليها بكل اشتياق.

وما درى أنني أعطيته قلبي، ليبني فيه صرحًا له وحده، وهل أغلى من القلب شيء.

قلتُ :

- لكنني لا أملك صورة أعطيها لك.

قال :

- إذًا اسمحي لي أن ألتقط لكِ صورة بهاتفي، علَني إن وضعته في جيبي بالقُرب من قلبي، لعله يُهدئ قلبي.

ضحكتُ، وضحك معي.

كنت أقف بباب الورشة، التقط لي أكثر من صورة، قلت له:

- إنك طماع.

ردَّ عليَّ :

- ليس في الحب من طمع.. فما تأخذه منه تدفع أضعافه وهو عندك.

فرحتُ لفرحته، ولفرحتي بلقائه، وما دريتُ أن العيون تتربص بنا، والقدر يرسم لنا رسمته، التي لا نعلم كُنهها، وما تجره الأيام علينا بعدها.

أضاع هاتفه، أو سرقوه، وأضاع صوري معه، أو سرقوها، فكان الرجوع إلى الحزن والخوف، وابتدأتْ في العلن محاولات لقتل حُبٍّ أراد أن يُولد، كان في مخاضه، لكنهم أمطروا نارًا من حوله، وأسقطوا أحجارًا فوقه، وحبله السُرِّي لا زال موصولاً.

• • • •

أفكـار

(١٦)

الحبُّ نافذةٌ من سجنٍ موحشٍ نطلُّ منها إلى أحلامنا، وآمالنا، وأمانينا في أن نعيش هناك مع من نحب، هي أملنا في أن نبقى أحياء، ولولا أن لنا أحبابًا ننتظر رؤيتهم، ونحلم بلقائهم، ونأمل عودتهم؛ ما صبرنا ولا تحملنا تحول حالنا، وتغير الناس من حولنا، وتبدل نظرتهم تجاهنا.

صرتُ عارهم الذي لابد من أن يؤدوه، وصار وجودي بينهم ثقلاً كبيرًا ما عادوا يتحملونه، ولولا وجود جدتي قُربي لكانوا ذبحوني وأراحوا أنفسهم، وأراحوني، لكنها وقفتْ مدافعة عني، ونافية تُهمهم المتنامية، التي تكبر يومًا بعد يوم.

آه أيها الحب... ما أوجعك حين تتعلق بأذيال الممكن.. وما ألذك وأنت تقاوم حبال المستحيل التي تجرك، لتعيش.

الأيام تمرُّ بطيئة، وحاجتي لأبي تكبر كل يوم، أردته ليدافع عني أمامهم، ولأدافع عن نفسي أمامه، وأثبت له أنني بريئة من تُهمهم، وعاراتهم، التي ألبسوها جلدتي، تمنوا لي القيام بها معهم فيسكتون، وما أن رفضتُ، ألبسوني إياها مع غيرهم، وصاروا يطالبونني بالجزاء.

ازداد السواد بعيني، ووأد الأمل في قلبي كبيرًا، كانت الأيام تمرُّ ثقيلة وموحشة ومخيفة.. ترى أين أبي الآن؟، ومتى سيعود، لينتشلني من خيبتي، ومرارتي؟ وأين تراه سامي؟، هل ظفروا به؟، وما هو حاله الآن؟... هرب من خطر يمكن أن ينتهي، من طائفية أُيقظت، خشي أن يقع فيها، أو تقع فيه، منتظرًا أن تعود لتنام، أو تموت إن تصالحت القلوب وعلمت ما يُحاك للإيقاع بها، ترك بيته وجاء، ليقع في خطرٍ أشدّ، هم أوقعونا فيه، خطر لا ينام ولا يموت، خطر الثأر، والعار، الذي لا يغسله إلا الموت، وما ذنبه، وما ذنبي أنا، إلا ان قلوبنا أحبت، أتراه جزاء الثوار، وقدرهم، في أن يضحوا بأمانيهم، وأحلامهم، وحتى حياتهم؛ إن هم أخطأوا، حتى وإن كان الخطأ بسيطًا... فضاع سامي وضاعت أخباره.

كان خبر إطلاق سراح أبي من المعتقل هو فرحي الكبير، وخوفي أيضًا، أتراه يصدقهم، ويطاوعهم؟، أم تراه لا زال يحتفظ بصورتي تلك عنده، ابنته الذكية، المطيعة، والمتعلمة، التي لا تخطئ، ابنته، الرقيقة، المحبة للشعر، العربي والغربي معًا.

تعودتُ وقوفي خلف جدتي بعدما صارتْ خط دفاعي الذي يحميني من هجماتهم، حتى عند وصول أبي، كنتُ أتطلع إليهم من ورائها، كنتُ أتلهف رؤية وجهه، هو خلاصي، ومنقذي، وهو أمي وأبي.

وما إن تزايدت الموسيقى عزفًا، وارتفع صوتها عاليًا، عرفتُ بوصوله، لحظات وإذا بوجهه يطلّ، أردتُ أن أقفز إليه؛ لكن جدتي سبقتني، وما أن وضعتُ وجهه بين أحضاني؛ حتى غرقتُ في بُكاءٍ

ونشيج، بكاء كنت أختزنه له، لا يمكنني أن أبكيه إلا في حضنه، وبين يديه، بكاء يحكي له ما لاقيته بعده من خوف، وضرب وتهديد.

أردت أن لا يسبقني أحدٌ ويحكي له كذبهم، وافتراءهم، أخبرته بتهديدهم، ونيتهم قتلي، وبكذبهم، واتهامهم لي، وأخبرته بمحاولة قسمٍ منهم ايقاعي بعدما وجدوني لوحدي، وبعدما أُفسح الجو لهم، ولمَّا وجدوني رافضة لهم، ولأساليبهم، ولدناءتهم؛ استغلوا مشاعري، وتعلقي بمن اختار قلبي، وبمن كان يعد الساعات ينتظر حضورك كي يطلبني منك، أرادوا أن ينتقموا مني، وممن كان يخاف عليَّ منهم، وأوقعونا كلنا، وصاروا يبكون عِرضهم، ويطالبون بالثأر ممن انتهكه.

كان أبي يعرفني جيدًا، وإنْ كنتُ قد أخطأتُ، فإن خطأي لا يستوجب ردة فعلهم تلك.. حاول إبعادهم، كان يريد أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، إلا أن تجبرهم وشعورهم بفقدان فرصتهم إن قبلوا بعودة الحال؛ جعلهم مُصرِّين على أن يأخذوا بثأرهم وينتصروا لأنفسهم.

انحاز أبي إليَّ، وهرب يحملني بين ثناياه، صار وجودي بينهم جريمة، والتودد إليَّ عارٌ يتوجب غسله، فكان لابد من الهرب، والتخفي، إلى أن يرجعون إلى رشدهم، أو يظهر الله براءتي.

فكانت الرحلة الأولى، وكان البُعد عن مكانٍ لازلتُ أُمنِّي النفس رؤيتك فيه، حتى في ذلك الصباح الذي كان سواد الليل يداخله، نظرتُ هنا وهناك علِّي أحظى بنظرة وداع من عينيك.. لكنها أمنيات الرحيل، وأحلام المسافر إلى غير رجعة.

وبدأت الوجوه تتبدل، وتتغير، لكنها لم تعد تؤثر فيَّ ما دام وجه أبي أمام ناظريَّ، وما دمتُ أتذكر جيدًا وجهك الوضَّاء، وحُمرة خجلك التي ترتسم على وجنتيك ساعة اعترافك بحقيقة مشاعرك... سامي، ترى أين أنت الآن؟، وهل من لقاءٍ آخر يجمعنا؟.

• • • •

أفكـار

(١٧)

(الليلُ يتمدد على الطريق..

والفجرُ يغفو خلف الجبيلات المظلمة..

والنجوم البكماء تعد الساعات..

والقمر الشاحب يسبح في الظلام العميق..

كل ما في الكون يخيفك..

كل ما في الكون يطردك، ويدفعك مكرهًا إلى عشك..

ومع ذلك فاستمع إليَّ أيها العصفور..

يا عصفوري الصغير.. إياك أن تطوى جناحيك..) *

جواهر، تلك الغجرية البسيطة، كانت أولى محطاتنا، اعتناؤها بي ووجلها على أبي حين تأخر في العودة ذكرني بأمي.. لطالما أطلقنا أحكامنا على الناس دون أن نعرفهم، ودون أن نجرِّبهم، كنتُ أظن الغجر أناسًا لا أُسر لهم، ولا روابط تجمعهم، فكنتُ عندها أشعر أنني بين أسرتي، أحسستُها أقرب إليَّ من أهلي وأعمامي.

---

* الشاعر الهندي طاغور

عاد أبي بعد غياب أيام كانت مُرعبة لي في تصوراتها، وخوفي عليه، منهم، ومن مخاطر الطريق، لولا وجود جواهر قُربي، والتي كانت أنيسي، فتهون علي الأمر حتى عاد.

وجاءت لحظة ترك الوطن.. كل الكائنات عندما تهجر أوطانها، طلبًا للدفء، أو للبرد، فهي تمشي أو تطير مع أهلها، مع صنفها، بمجاميع وأسراب، لكن البشر في أغلب أحواله، يهاجر وحده، ويهجر أهله، فتذبحه الغربة، مع كل ما قد يتوافر فيها من جمال، وأمان، لكن يبقى (خبز الوطن خيرٌ من كعك الغربة)*.

الحياة في سوريا بسيطة، وجميلة، لكن فيَ غصة لتركي وطني بتلك الطريقة، وفورة حنيني تعلو ولم تزل كما يقول الشاعر: (لأولِ منزلِ).

لم أجد صعوبة في العمل الذي باشرته بعد أيام من وصولنا، كانت الخياطة ولعي الذي أحبه، بجانب الشعر الذي أحفظ منه الكثير، وكان عملي في (معمل خياطة ميادة) مُريحًا لي، خصوصًا وأنني انتقلتُ بطلب من السيدة (ميادة) للسكن في عمارة ملحقة بالمعمل هي تملكها أيضًا، وكان لوجود عدد من عاملات الخياطة العراقيات في المعمل أثره في أن يقلل من إحساسي بالغربة، وكانت (نادية) أول من اقتربتْ مني وأصبحتْ تربط بيننا علاقة صداقة، لكن أمرًا آخر كان يقلقني، ويحزنني، كان لابد لأبي من العودة إلى الوطن

* فولتير

ليكمل أمورًا لابد من إكمالها، وليبعد شكوك أعمامي وأولادهم من أنه لم يقم بما أرادوه فيبدأوا في البحث عنا.

كان عزائي في سفر أبي أنني وجدت عملاً أقضي به وقتي، لكن القلق عاد يتراكم فوقي، فما أن وصل أبي هناك؛ حتى انقطع الاتصال به، كان هاتفه مغلقًا منذ أخر اتصال أخبرني فيه بوصوله، زاد خوفي عليه وفكرَّتُ بطريقة أعرف منها أخباره لكنني لم أجد، انتظرتُ أيامًا لعلَّ السبب يزول ويتصل بي، لكن الزمن طال.

أثَّر انقطاع الاتصال بأبي على نفسيتي، وعلى حالي، خصوصًا أنني لوحدي ولا أحد يواسيني، فصرتُ أجول بقلقٍ في فضاءات الشقة التي أسكنها منتظرة أي اتصال، وكان لحضور (نادية) عندي أحيانًا أثره الكبير في التخفيف من غربتي وانقطاع الأخبار من أبي، كانت تأتي إليَّ في شقتي في الدور الأعلى من الدور الذي تقع فيه شقتها في البناية نفسها، وكنا نقضي أوقاتًا طويلة، جعلتني أتسلى قليلاً وأخفِّف من حِدَّة قلقي.. ويومًا بعد يوم توطدت علاقتنا كثيرَا، وتكلمنا كثيرَا، حدَّثتها عن قصتي مع أهلي، وعن حبي الأول، وعن سامي، وتكلمت هي لي عن حياتها وكيف أنها جاءت هنا مع ولديها (ولد وبنت)، بعد أن قُتل زوجها الذي كان يعمل نادلاً في أحد فنادق الدرجة الأولى في بغداد، وصادف أن جاء جنود المحتل هناك فطلبوا منه أن يسقيهم، فلبَّى طلبهم، وبعد أن خرجوا هجم عليه مسلحون وقتلوه، وكم كانت صدمتي كبيرة عندما أخبرتني أنها

تعمل في مطعم ليلي، لأنني لم ألحظ عليها ذلك قبل أن تخبرني به، ولأنها لاحظت صدمتي تلك قالت :

- لا يمكنني أن أكتفي بتلك الريالات التي تعطيني إياها ميادة.. فهي لا تكفيني وأولادي خمسة أيام.

لكن الصدمة الكبرى كانت عندما أخبرتني أن ذلك المطعم الليلي الذي تعمل فيه هو ملك للسيدة ميادة نفسها صاحبة معمل الخياطة الذي أعمل فيه.

غادرتْ نادية، وازدحم ذهني بالأفكار، فكرَّتُ في ترك العمل بمعمل الخياطة، لكن فكرة بقائي لوحدي طيلة النهار، وخسارتي لصداقتي الوحيدة مع نادية، وخسارتي لعملي؛ سيجعلني أعيش في فراغٍ كبيرٍ، تذكرت حينها قولاً للشاعر الفرنسي فولتير يقول فيه : (العمل يبعد عن الإنسان ثلاثة شرور: السأم والرذيلة والحاجة).

قرَّرتُ أن أُبقي الحال على ما هو عليه حتى حين، وبررَّتُ هذا القرار لنفسي: (مالي ولهم... حتى وإن كانت تملك ملهىً ليلي.. فأنا لا أعمل فيه.. أنا اعمل في معمل الخياطة.. ونادية هي صديقتي هنا وليس في الملهى.. وأنا لم أرَ منها تصرفًا يثير حفيظتي). وقرَّرت أن أخبر أبي حال رجوعه لنرى ما نفعله تجاه ما جدَّ من حال.

لكن ما غيَّر حالي وزاد الأمر سوءًا، أن ميادة صاحبة المعمل طلبتني بعد يومين في مكتبها لتخبرني أن مطعمها صار يعاني من نقص كبير في العاملات، وأنها تطلب مني أن أحوِّل خدماتي هناك.

كانت ردَّة فعلي قوية.. ثرتُ عليها، وصرختُ في وجهها، واتهمتُها بالمخادعة، والسمسرة... وكانت ردة فعلها هادئة وكأنها تتوقعها، قالت: (أنتِ عاملة عندي سواء كنتِ في المعمل أو في المطعم.. صحيح أن أُجرة المطعم أعلى.. لكنني أنا من يقرِّر مكان عملك.. فإمَّا أن تلتزمي بالتعليمات وتعملي في المكان الذي أحدِّده لكِ، أو لا يكون لك عمل عندي).

تركتُ المعمل وعدتُ إلى سكني، محبطة، ناقمة، حاولتُ الاتصال بوالدي، لكن هاتفه كان مغلقًا كما هو منذ شهر، فصببتُ حِنقي وقِلة حيلتي عليه، جعلته هو السبب في ما يجري لي، كنتُ أريد أحدًا لأرمي عليه كل عذاباتي، ومخاوفي، وفشلي، وهل أكثر من الآباء يمكنه أن يلبس هذا الدور؟.

أجهشتُ بالبكاء الذي وجدته الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله بعد أن فشلتْ كل محاولاتي للاتصال بأبي.. لم أستطع النوم ليلتها، كنتُ أفكِّر بحالي، وبخياراتي، فلابد لي من أن أترك هذا العمل، وأترك هذا السكن.. لكن أين سأسكن؟، وماذا سأعمل؟.

لم تتركني نادية تلك الليلة، باتت عندي، اقترحتُ عليها حلولاً لوضعي، وكنتُ أطلب منها أن لا تبتعد عني، قلتُ لها :
- سأعود لأسكن في المكان نفسه الذي كنتُ فيه مع أبي أول مجيئنا، وسأبحث عن عمل جديد... لكن الأهم أن لا تنقطعي عني.

وكانت هي تستمع إليَّ صامتة، ثم فجأة، وبين حينٍ وآخر تتهجم بسيلٍ من الشتائم والسِباب على ميادة.. وعندما أتركها لأكمل ترتيب أغراضي استعدادًا للمغادرة في اليومين القادمين، كانت تنظر إليَّ بصمتٍ وكأنها تفكِّر بشيءٍ لا أعرفه، أو تخطِّط لأمرٍ جديد.

اقتنعتُ بقراري في أن أسكن في مكانٍ قريبٍ أضمن فيه على الأقل قُربي من نادية، فهي الوحيدة التي أعرفها هنا في هذه الغربة، صحيح أن معرفتي بها ليست بعيدة، لكنها على الأقل صارت صديقتي، وللحقيقة كانت هي متنفسي الوحيد، وكان وجودها قُربي يعيد البهجة إلى نفسي، كانت تأخذني في جولاتٍ ندور فيها على الأسواق، فيتغير مزاجي، وأشعر بدفعة من القوة تجعلني أشعر بثقة أكبر على إمكانية نجاحي في تخطي ما أنا فيه اليوم.

جاءتني نادية بعد منتصف الليل، بعد أن أكملتْ عملها في المطعم، كنتُ قد أكملتُ حَزْم امتعتي وأغراضي.. كانت منزعجة، وحانقة، استقبلتُها، وعندما لاحظتُ الغضب على وجهها، سألتُها :

- ما بكِ تبدين منزعجة ؟

- لقد تصايحتُ معها.. لم يكن لي لأسكت، أخبرتُها أن لا حق لها في أن تجبرك على العمل في مكانٍ لا تريدينه.

- المشكلة معي أنا ولا مبرر لتصنعي لكِ أنت مشكلة أيضًا..قد لا تجدين لكِ عملاً آخر.

سكتت للحظات ثم قالت :

- أنا أيضًا سئمتُ منها، ولم يعد يعجبني العمل عندها.

ثم أردفتْ :

- المشكلة معنا كلنا.. إنها تتحكم بنا.. تريد أن تستغل ظروفنا لصالحها ولصالح أعمالها... أنا أيضًا لم يعد بي قدرة على تحملها.

صمتتْ للحظات، ثم عادت لتقول :

- إن عملنا عندها، وتوفير ملاذ لنا نسكن فيه؛ ليس معناه أن نعمل وفق مصالحها هي إن لم نكن نرغب.. إن استغلال ظروفنا وصل حدًا لم يعد مقبولاً.

صدمتني ردة فعل نادية هذه، لم أكن اتصور أنها حانقة إلى هذا الحد، كما أن تجربتي القصيرة هنا لم تعطيني الفرصة الكافية لأتبين مقدار الألم الذي يتراكم على الإنسان في غربته يومًا بعد يوم.

أردتُ أن لا أكون سببًا في تدهور حالها، قلت لها :

- لا تهتمي لي.. سأسكن قريبًا منكِ... وسأجد عملاً آخر، فلا تهدمي ما بنيتِه... فوضعك يختلف عن وضعي أنا.

كانت هي شاردة، كانت كمن يفكِّر في أمرٍ ما، أو قرار تتردد في حسمه، ثم وفي لحظة من كلامي معها في محاولة تجنيبها الآثار المترتبة عن مشكلتي مع صاحبة العمل، أدارتْ وجهها تنظر إليَّ وكأنها لم تستمع إلى كل ما كنتُ أقوله، كانت نظرتها توحي لمن لا يعرف علاقتنا المتسارعة، أنها تراني للمرة الأولى، ثم فجأة أشرق وجهها، وكأنها اكتشفت شيئًا جديدًا، قالت :

- ما رأيكِ لو نذهب إلى بيروت؟... هنالك عرض للعمل قُدِّم لي منذ فترة.. ما رأيكِ أن نذهب سوية ونسكن معًا، ونجد لكِ عملاً هناك.

لم أجبها، فقد كان الموضوع بمجمله مفاجئًا لي، كان ذلك مستحيلاً بالنسبة إليَّ، إنه المكان الوحيد الذي يعرف أبي أنني فيه، وإذا تركته فسأكون في مهبِّ الريح... كان لابد لي من أن أتفاعل معها، قالت :

- سنكون معًا.. أنا أريدكِ معي.. أنا أيضًا أشعر أن حياتي اختلفت منذ أن جئتني، أشعر أنك من أهلي.. ولا أريد أن أعود إلى وحدتي.. صحيح أن ولديَّ يملآن حياتي.. لكنني وجدتك أختًا لا أريد أن أفارقها.

كانت دموعها قد بدأت تتدفق، احتضنتها، قلتُ لها بعد تفكير :

- لكنني لا أستطيع... لي ظروف لا تسمح.

- ليس هنالك ظروف يمكنها أن تمنعنا من أن نعيش حياتنا طالما أننا مقتنعون أننا سنكون بحالٍ أفضل.

- لكنني أنتظر أبي.. كيف سيجدني عندما يأتي؟.

مسحتْ دموعها على عجل ونهضت ليشرق وجهها من جديد، وكأنها حصلت مني على الموافقة، قالت :

- سنترك له رسالة عند إحدى زميلاتنا اللاتي لا يبرحن هذا المكان. ثم أننا سنحتفظ بأرقام هواتفنا السورية هناك وهي تبقى تعمل.. فإذا جاء فمن المؤكد أنه سيتصل وعندها ستخبرينه بمكانك.

كنتُ غير مقتنعة، سألتها :

- وماذا سأعمل هناك ؟

- عندي معارف كُثر، فقد سبق لي الذهاب إلى هناك، وسنجد لكِ عملاً في معمل خياطة أو أسواق أو محلات بيع الألبسة الكثيرة هناك.

أمضتْ الليل كله تسهِّل الأمر عليَّ، وكلما طرحتُ عليها أمرًا يجعلني أنتظر هنا، كانت تجد له حلاً... لا أعرف كيف تذكرتُ في تلك اللحظة بالذات أنني سبق وسجَّلتُ رقم الهاتف الخاص بـ(جواهر) الذي أخذته منها حين كنتُ عندها، لا أعرف لِمَ لَمْ أتذكره قبلها، وكان لتذكري هذا دورٌ كبيرٌ في إقناعي.. لا أعرف كيف نسيته، ولم يخطر ببالي أن أتصل بها لأستعلم منها عن أبي... ركضتُ من فوري نحو هاتفي واتصلتُ بها، لكنها كانت مثلي لا تعرف خبرًا عن ما آل إليه وضع أبي.. حدثتُها عن حالي، وما آل إليه، اقترحتْ عليَّ أن أعود إليها، ثم تكلمتْ مع نادية التي أقنعتها بفكرة تحولنا إلى بيروت... ودَّعتُها بعد أن أكدت لي أنها ستحاول الاتصال بأبي، وستشرح له حالي وما آل إليه، وستعلمه بطريقة الاتصال بي ليجدني.

وجاءت اللحظة التي وجدت نفسي فيها على استعداد لقبول الفكرة التي طرحتها نادية، واقتنعت بإمكانية أن أمضي بها معها، خصوصًا وأنني سأحتفظ على الأقل بصداقتي الوحيدة، وقد كان حلها لمشكلة اتصال أبي عندما يعود دافعًا قويًا لأوافق على الانتقال

معها، لكنني عدتُ لأقول لنفسي : (ترى هل سيرضى أبي بذهابي؟) ثم تذكرتُ قوله لي قبل أن يغادر في أن لا أتردد في اتخاذ القرار الذي أراه صائبًا، وأنه سيكون مرتاحًا إن أنا استطعتُ أن أتدبر أموري.

لكن تساؤلاً بقي معلقًا بذهني لم أستطع الإجابة عليه :

- ترى هل قراري بالذهاب مع نادية سيكون صائبًا؟.

• • • •

أفكـار

(١٨)

(ليس للحُبِّ ببيروت خرائط..

لا ولا للعشق في صدري خرائط..

فابحثي عن شقة يطمرها الرمل..

ابحثي عن فندق لا يسال العشاق عن أسمائهم..

سهريني في السراديب التي ليس بها..

غير مغن وبيان..

قرري أنتِ إلى أين..

فإن الحب في بيروت مثل القدر في كل مكان) *

بيروت، يا عروسة البحر التي تتجمل كل ليلة بانتظار عريسها الذي نذر نفسه، حارسًا يجول شواطئها، مذ تكالبت الحيتان من حولها، وهو يدفع عنها، فطال انتظاره... يا ملكة الجمال، والثقافة والفنون، ها أنا اليوم في حضرتكِ، وعلى بلاطك استجدي منكِ أمومتي التي غيَّبها السرطان، وأبوتي التي غيَّبتها الحروب، والسفالة، والنذالة، والعمالة لمغتصبي وطني... استجدي الصبر

---

* نزار قباني

منكِ، والجَلَد، والثبات، فإنتِ قد سبقتِني في الخسارة، خسارة الأهل، والأحباب.. وصبرتِ، ولازلتِ ثابتة تكافحين لأجل حياة جديدة، وماذا لنا نحن الثكالى غير أن نصبِّر بعضنا بعضا، لعلَّ يومًا جديدًا يعيد إلينا بهاء حياتنا.

لا أبرح هاتفي الجوال، ولا يبارحني إن أنا مشيتُ هنا أو هناك، انتظر اتصالاً يعيد إلي بهجتي، وصفاء الألوان من حولي:

- أبي، أتراهم غدروا بك؟... أيمكن أن تقتلك أيادٍ حملتَها صغيرة، وهدهدتَها، وصافحتَها... أم أنَّ حُمى القتل المجنونة أصابتك؟... وهل سيكون دمك كافيًا ليروي تعطشها؟.. هل تراك تتنفس، وأي هواء يدخل رئتيك، أهو هواء الوطن، وهل هو كما كان، أم تراه اختلط بعفونة جُندٍ عبروا المحيطات ليقتلوك.

كانت الأيام تمرُّ جميلة في بيروت، كل ما فيها جميل، أهلها بتنوعهم، جبالها وسهولها، مرابعها وخُضرة الأرض، شارع الحمرا، والروشة، وجونية.

كان وجهك يتراءى لي بين الوجوه :

- سامي، إلى متى سيبقى وجهك أمام ناظريَّ؟.. أيمكن لذاكرتنا أن تنسى وجوه من أحببنا، فتستريح، وتستريح معها أجسادنا، من هذا التعب الطويل والمجهد، تستريح من مطاردة شاقة، فلا يعد ينقصها شيء، وتقنع بما قسم لها... لكن هل يمكن لأجسادنا أن تستريح وقد تركنا قلوبنا هناك؟

في البداية كنا نخرج يوميًا لنبحث لنا عن سكن ملائم ننتقل إليه، كنا قد استأجرنا غرفة في فندق، وكانت ثرثرة طفليَّ نادية (نهاد وسما) تملأ علينا الأجواء.

أحسسنا بنوع من الاستقرار بعد أن وجدنا شقة نسكنها في منطقة (جل الديب)، وكان لمباشرة نادية في عملها الذي دُعيت إليه سببًا في أن أبدأ بحثي عن عمل... انتظرتُ أول الأمر قليلاً ريثما وجدتْ نادية دار حضانة يمكن أن يستقبل طفليها خلال وقت عملها.

أردت أن نخرج للبحث عن العمل، لكن نادية رأت أن لا حاجة لذلك: (سأتدبر لكِ عملاً يناسبك)... كنتُ أرى أن علاقاتها لم تزل ضيقة، وقد لا تتمكن من ذلك قبل شهور، لكنها فاجأتني بعد ثمانية أيام طالبة مني مرافقتها لنطلع على مكان عملي الجديد...

كان محلاً كبيرًا لبيع الألبسة النسائية والرجالية، وحتى ملابس الأطفال، والاكسسوارات، كان يمكن تسميته سوقًا أكثر منه محلاً، وقد فرحتْ بتخلصي من جوِّ الوِحدة الذي أحاطني بعدما ابتدأتْ نادية بعملها، فكانت تذهب إليه كل ليلة، وفي الصباح تعوِّض ما فاتها من نوم.

عملتُ بائعة في قسم الألبسة الرجالية، مع أنني كنتُ أفضِّل الألبسة النسائية، وكان لوجود عاملات أخريات من بلدانٍ أخرى أمرًا مشجِعًا لي... وبدأت أعتادُ حياتي الجديدة، وكانت مُريحة إلى حدٍّ بعيد، ولو أن أبي كان معي لقلتُ إنها حياة يمكنها أن تصبِّرني على بُعدي عن بلدي.

كانت الوجوه كثيرة، ومن جنسيات مختلفة تتردد على السوق، ووجوه العراقيين تتوافد كل يومٍ بينهم، وكنتُ أترَّقب شيئًا لا أعرفه، أترَّقبه في وجوههم، والعراقيون بمعظمهم يمكنك أن تعرفهم بوجوههم، وما يرتسم عليها من جدية، وحُزْن، كأنه حُزْنٌ أزلي.. كنتُ أتفحصها، أبحث فيها عن شيءٍ ما، شيء لا أعرف ما هو، أنتظر طلتها، وأتفحصها وجهًا وجهًا، لم أكن أدري أنني أترقب إطلالة وجهك من بين الوجوه:

- سامي، أيمكن أن أرى وجهك مرة أخرى؟

كانوا يتجاوبون مع نظراتي المتفحصة لوجوههم، فما إن أتكلم معهم، حتى يصيحون: (عراقية؟)، فأجيب: (نعم)، لتطفح البهجة على وجوههم، وكأنهم وجدوا عزيزًا طال بحثهم عنه، وتتغير ملامحهم، فأشعر بعاطفتهم، وبحنيتهم الكبيرة نحوي، وكأننا على معرفة متينة ببعضنا، فينصرف ذهني عاتبًا:

- مالنا نحن العراقيون؟ وما الذي جرى لنا؟.. لماذا نتقاتل بيننا في الوطن؟.. ولماذا بدأنا نتساءل هناك عن طائفة بعضنا البعض، وديانته، وقوميته؟.. وعندما تجمعنا الغربة نتلهف لبعضنا كالأحباب، ونتناسى كل تلك المسميات، مع أننا لا نعرف بعضنا.. وننسى كل تلك الأسئلة، لأنها لا شيء أمام عراقيتنا.. ترى من أين لنا كل هذا الظُّلم؛ ظُلمنا لأنفسنا، وظلمنا لبعضنا البعض؟... ولماذا نمجِّد المظلومية.. لماذا نردِّد دومًا في أدعيتنا أن نكون مظلومين... أليس رغبتنا في أن نكون مظلومين هو ما يولِّد

الظالمين بيننا، ويوجدهم؟... أو ليس من الأوجب علينا أن لا نرضى أن نكون مظلومين، فلا نعطي فرصة ليظلمنا أحد، أو أن يكون بيننا ظالم... ونحن نعلم أن إثارة كل هذا الظلم بيننا، وكل هذه المسميات من طوائف وقوميات إنما تمَّ ليخرب حياتنا، ويهدم وطننا.. متى يمكننا أن نقول إن مقولة "تشي جيفارا" الشهيرة: (أينما وجد الظلم فذاك هو وطني) لم تعد تنطبق علينا.

كنتُ لا أعلم أنه يراقبني، وقد أكون أذكر شكله الذي مرَّ بي مع ما مرَّ، كونه وجهٌ عراقي، والعراقيون يحبون الكلام مع البائع، فكيف إذا كان ذاك البائع عراقيًا في بلدٍ آخر... تقدَّم نحوي، كنتُ أعتقد أنه يودُّ ان يسأل عن حاجة، أو ملبس، قال :

- أنا آزاد.. من دهوك... يوميًا آتي هنا طالما أنا في بيروت.. أريد أن اتعرف إليكِ أكثر.

فاجأني طلبه، قلتُ له :

- أهلاً بك... أنا أفكار.

- ليس هذا فقط، فأنا أعرف اسمك من هذه...

أشار إلى لافتة اسمي المعلقة على صدري، ثم أضاف :

- أريد أن أعرفكِ أكثر: أين تعيشين؟.. وهل أنتِ مرتبطة؟.. ومن هم أهلك، وأين يسكنون؟

ابتسمتُ، وقلت له :

- ولماذا... هل تريد أن تجد لي عملاً آخر؟.

وكم كانت صدمتي حين فاجأني قائلا :

- لا... أريد أن اتزوجكِ.

كان قد تجاوز الاربعين، لكنه كان وسيمًا، وكانت هيأته ترسم صورة هادئة ومحترمة له.

في البداية اعتبرتها مجاملة منه، قلتُ له :

- أشكرك... لكننا لا نعرف بعضنا.

- ولماذا تراني أطلب أن أعرفكِ أكثر.

كان كأنه قد اتخذ قراره، أردف يقول :

- أنا عراقي من دهوك... كنت أؤجل مسألة زواجي كثيرًا، إلى أن رأيتكِ قبل ثلاثة أسابيع أو أكثر.. عرفتُ أنكِ غير متزوجة.

قلت له :

- لكنك فاجأتني.

- سأعطيكِ وقتًا لتفكِّري في الأمر... لكن لا تتأخري كثيرًا فلابد لي من العودة إلى العراق فمشاغلي كثيرة.

وجدتني أسأله :

- وماهي مشاغلك...ماذا تعمل؟

- كنتُ أعمل بالتجارة... لكن وضع البلد جعلني يومًا بعد آخر أدخل العمل السياسي...

سحب ورقة صغيرة على المنضدة التي تفصل بيننا وكتب رقم هاتفه وسلمه لي، ثم قال :

- أرجو أن لا تتأخري بالرد.

ثم غادر... وقد كان هنالك رجال لم أكن أشعر أنهم معه ينتظرونه على مبعدة.

كانت مفاجأة لم أتوقعها، كنتُ أنتظر وجهًا يظهر من بين الوجوه، وكأنني أشعر بأنني سارأه، وظهر لي وجهٌ آخر.. يتراءى لي وكأنني أمام لعبة يانصيب، أرى نفسي أقف أمام تلك الآلة التي تضغط فيها زرًا وتتأمل أن يخرج لك ما تحب وترغب، لكنها تخرج لك شيئًا آخر؛ شيئًا لم تكن تتوقعه، فتتردد أول الأمر في أخذه، وتكون أمام خيارين، إما أن تأخذ ما جاءك، أو تعيد اللعبة من جديد... وقد وجدتُ ما جاءني غير الذي تمنيته، وغير الذي دخلت اللعبة من أجله... وأعود لأسأل نفسي : (وهل كان من الممكن هنا أن يخرج لي ما تمنيتُ، وهل عليَّ أن أعيد اللعبة مرة أخرى، فإن لم يخرج لي ما أتمنى.. فإلى متى سأبقى أعيدها؟... أيكون هو نصيبي، وهل يمكننا أن نغيِّر ما لنا من نصيب، وهل صار عليَّ أن أرضى بنصيبي؟).

• • • •

أفكار

(١٩)

قابلتني نادية باندفاع قوي واجه رتابة طرحي للموضوع، قالت :

- هي فرصتكِ فلا تضيعيها، فرصتك في أن يكون لكِ بيتٌ، وأن تؤسسي لعائلة وحياة، وأن تعودي لوطنك، قوية ومرفوعة الرأس، فتعيدين لكل من أحبك بهجته، وقيمته الحقيقية التي انتقصت، وستجدين كل من حاربكِ وآذاكِ يتذلل إليكِ، ويستجدون أهليتك التي تبرأوا منها يومًا... لابد لكِ من أن توافقي.. وافقي من أجلكِ أنتِ، ومن أجل أهلكِ وأحبائكِ... اكملي مشوار حياتك الذي ليس له أن يتوقف يومًا عند محطة واحدة وجدتِ فيها من أحببته.

قلتُ لها :

- وسامي.. كيف لي أن أنساه ؟.

- لا تنسِه... سيبقى في ذاكرتك طيفًا جميلاً، وتجربة عشتِها،.. تغني مشوار حياتك.

- وهل سيرضى هو إن أخبرتُه بقصتي؟

- لابد له من أن يرضى إن كان يريدك.. كلنا لنا ماضي، وبدونه ما كنا لنكون.. وماضيكِ أنتِ ناصعٌ لا شائبة فيه... احكي له قصتك

كلها وليكن القرار قراره... وأعتقد أنه سيكون فخورًا بكِ أكثر طالما هو مقتنعٌ بكِ.

• • • •

شلش

(٢٠)

كان الأمر أشبه ما يكون بما كان، تحقيقٌ واستجوابٌ، وتهديدٌ وترغيبٌ.. المهم كان التأكد من قيامي بالجريمة ليُحكم عليَّ، أو أن أدلهم على عنوان (أفكار) فيقتلونها هم... وكانت أقوالي كما هي، وكما كانت في المرة السابقة.

الشيء المختلف هذه المرة هو أن لديهم شهودًا؛ لا أعرف من أين أتوا بهم؛ ليشهدوا أنني قتلتُ ابنتي... كنتُ على استعداد هذه المرة أن أواجه جزاء جريمة لم أقم بها، على أن أدلهم على مكان ابنتي.

طال السجن، وطالت أيام البُعد.. كنتُ أريد فقط أن أحقِّق اتصالاً واحدًا مع (أفكار) كي أطمئن عليها، وأطمئنها عليَّ.. لكن الأمر ما كان ليتمَّ مع هذا التركيز في محاولة التعرف على حقيقة ما آل إليه وضع (أفكار)، كما أن استحالة اتصالي بها وقد تركتُ هاتفي في البيت، جعلني في وضع يزداد سوءًا يومًا بعد آخر.. لكنني كنتُ أشعر براحة تغمرني كلما تذكرتُ أنني لم أسجِّل رقم هاتف (أفكار) باسمها، وكانت فطنتي هذه حسنة ورثتُها من جُملة حسنات تركزت في تفكيري نتجتْ من خدمتي العسكرية الطويلة، كان من المؤكد أن

أحدهم سيحاول أن ينبش البيت بحثًا عن أي دليل لوجودها في الحياة.

كما أن تطورًا آخر قد حصل؛ قذفني في عاصفة الحيرة بقدر ما استشعرتُ براحة جرَّاء حصوله، جعلني أفرح كثيرًا، لكنني كنتُ أخاف نتائجه، مع أنني متيقن من أن له أهميته، لكنني لم أتبين تلك الأهمية بعد، وهل ستكون لصالحي أم ضدي، فقد رأيتُ بعيني ذاك الصباح مجموعة من الشرطة تجرُّ (منَّاع) مكبلاً بالقيود. في البداية غمرني شعوري بالراحة، لكنني عدتُ لقنوطي ويأسي بعد وقت قصير، فلابد أن الأمر لا يتعدى أن يكون لعبة من تلك الألاعيب التي يمررونها لغايات تخدم مصالحهم.

• • • •

منَّاع

(ابن العم)

(٢١)

إفادة المتهم منَّاع سليمان مرهون، عمره ٣٨ سنة، متزوج ولديه ستة أطفال :

س: تكلم بالتفصيل عن كيفية قيامك ومجموعة من الأشخاص بسرقة النفط ومشتقاته، ومن هم الأشخاص الذين اشتركوا معك في هذه الأعمال؟.

ج : بعد دخول الأمريكان واحتلالهم للبلد بثمانية أشهر تقريبًا، ألتقيتُ بأصدقائي كل من: وليد ناظم حميد، وسفيان أحمد كاظم، وسلام علي كاطع، وعيسى مرزوق فاضل.. واتفقنا على أن نقوم بسرقة النفط الأسود وبيعه.

س : أين التقيتَ بهؤلاء الأشخاص، وما هي الأعمال التي قمتم بها قبل ذلك؟.

ج : بحكم أننا من مدينة واحدة، وسبق أن كانت تربطنا علاقة صداقة نشأتْ بيننا عندما كنا في السجن قبل الاحتلال، فقد التقيتُ بهم في أحد شوارع مدينتنا، ولأن الأحوال كانت راكدة

بعد السقوط والجميع بلا عمل، وليس هنالك وارد مادي ليس لنا فقط بل لكل العراقيين، بعد أن ألغت قوة الاحتلال الجيش العراقي والكثير من الدوائر الأخرى المدنية، مما دفع الكثير للبحث عن عمل يمكنهم به من أن يجلبوا الخبز لعوائلهم، وبعد لقائنا اتفقنا على أن نستولي على أسلحة ومقتنيات الجيش العراقي التي بقيت مرمية في معسكراته.. في البداية كنا نخاف الأمريكان، لكننا بعد مرة أو مرتين زال الخوف بعد أن لاقينا تشجيعًا من الجنود الأمريكان.

س : ما هو مصير الأسلحة والعتاد التي استوليتم عليها؟، تكلم بتفصيل عن كيفية تصرفكم بها.

ج : معظم الأسلحة التي استولينا عليها بعناها لأشخاص وجهات عديدة، كان هنالك تجار محليون يجمعونها ويبيعونها لأناس خارج الحدود، كما أن هنالك جهات محلية كانت تشتري تلك الأسلحة وتجمعها، بالإضافة إلى أننا أبقينا قسمًا قليلاً منها لأنفسنا، وكان هذا المتبقي عندنا من أحسنها وأندرها؛ كالقناصات والبنادق الثمينة والمسدسات وكواتم المسدسات والبنادق، استخدمنا جزءًا منه كهدايا نقدِّمها لأصحاب النفوذ، ليغطوا على أعمالنا وليضغطوا بسلطتهم على الأشخاص الذين يعيقون أعمالنا، ولازال عدد قليل جدًا موجودًا عند قسمٍ منا.

س: ما هي الأماكن التي كنتم تسرقون النفط منها؟ اشرح كيفية قيامكم بسرقة النفط، وما هو دورك أنت خلال العملية، وطريقة

بيعكم له، ومن هم الأشخاص، أو الجهات التي تشتريه منكم، ومن هي الجهات التي كانت تحميكم؟.

ج : كانت عمليات سرقة النفط في البداية تتم بطريقة واحدة هي تفجير الأنبوب الرابط بين مضخات الدفع الرابطة بين مستودعات آبار الإنتاج وبين المصفى، ثم تطور عملنا لتتم عملية سرقة النفط من المصافي التي ابتدأت بمعاودة عملها الذي وضعت قوة الاحتلال كل جهدها لإعادتها للعمل بأسرع وقت، كانت قوة الاحتلال مستعجلة جدًا لمعاودة إنتاج وتصدير النفط، كانوا وكأنهم يعملون معنا، وكنا فرحين لسرعتهم هذه، وكانت عملية سرقة النفط من الأنابيب تتم بوضع عبوة متفجرة تحت الأنبوب الذي كنا نختار مكانه في منطقة منخفضة أو بالقرب منها ليتجمع النفط فيها، ثم نسحبه بواسطة مكائن صغيرة لسحب السوائل لنعبِّئه في السيارات الحوضية، كما أننا في بعض الاحيان نبيعه وهو على الأرض بشكل بركة، وكنا نقوم بهذا العمل باسم المقاومة، وكان الكثير من الناس متعاطف معنا ومؤيد لنا، دون أن يعلموا مقدار المبالغ التي نجنيها من ناتج بيعنا لهذه النفوط.. وعندما بدأنا نزاحم قوات الاحتلال على ما جاءت من أجله، قامت بمراقبة أنابيب النفط ونصب كمائن قريبة من الأماكن التي تتوقع أن يتم تفجيرها، ولتأمين أنفسنا في حال أُلقي القبض علينا قريبًا من تلك الأماكن؛ اضطررنا إلى أن نتقرب إليهم عن طريق المدعو (صلاح) الذي كان

يعمل مترجمًا عندهم، بعد أن قدَّمنا له مبلغ عشرين ورقة من فئة المائة دولار عن كل واحدٍ منا، فتم ربطنا بهم باعتبارنا أدِّلاء ووكلاء عندهم، ندلهم على الأماكن التي يتحرك الإرهابيون لتفجيرها من خلال تواجدنا بين الناس، وكذلك على طول الخط الذي تمتد فيه الأنابيب، وهذا ما كنا نريده، حيث سهَّل لنا التواجد قرب الأنابيب، وحقَّق لنا الأمان في حال ضبطتنا قوات الاحتلال قرب تلك المناطق.. وقد اضطررنا في البداية أن نضع عددًا من عبوات التفجير وفي أماكن وأوقات مختلفة تحت الأنابيب ثم نبلغهم عنها، إلى أن كسبنا ثقتهم نحونا، فزودونا بهويات تحمينا في حال أُلقي القبض علينا من بقية قواتهم، أو من قوات الحرس الوطني العراقي والشرطة العراقية التي لم يكن لها ذاك التواجد المؤثر آنذاك... وقد كان دوري في العملية في البداية هو تأمين المنطقة القريبة من عملية التفجير مع بقية المجموعة ريثما يكتمل عمل (الزراع)، وهو الشخص الذي يضع القنبلة تحت الأنبوب، ثم تحولتُ بعد ذلك لأكون الزارع، فذلك العمل يعطيني نصيبًا أكبر... وكان النفط الذي نسرقه نبيعه لتُجَّار محليين يقومون بتهريبه إلى خارج البلاد... أما الجهات التي كانت تحمي عملنا فهي مجاميع مسلحة قسمٌ منها كان يعمل لحسابه الخاص ولديهم ميليشيا على طول الطريق أثناء المرور بمناطق نفوذها، وقسم آخر يعمل لصالح مقاومة الاحتلال ويستخدم الأموال الواردة من جراء عدم تعرضهم لنا، لشراء الأسلحة والعتاد اللازمين لضرب

قوات الاحتلال المنتشرة على طول البلاد، وتأمين مستلزمات المعيشة لعناصرها وعوائلهم.

س: لأية جهة كنتم تميلون؟ وعلى أية جهة تحسبون أنفسكم، على قوة المقاومة المسلحة أم على قوة الجيش الأمريكي؟.

ج: كنا نميل للجهة التي تحمينا وتحمي عملنا الذي نجني منه المال، أذكر في مرة من المرات أننا بعد أن أكملنا تفجير أنبوب النفط عدنا بعجلاتنا إلى المنطقة الآمنة البعيدة عن مكان التفجير، لننتظر ريثما تحضر قوات الجيش الأمريكي وعدتها لتقوم بعملية إطفاء النار الناتجة عن عملية التفجير فهم ليسوا مثلنا، نحن لدينا الاستعداد أن نحرق نصف النفط أو أكثر مقابل أن نحصل على المتبقي ونبيعه، أما هم فيعتبرون هذا النفط ملكهم، وسبق لهم أن حسبوا كميته، ومقدار إنتاجه لسنوات، والمبالغ المترتبة من بيعه، ويظهر أنهم عدَّوها جيدًا، وأدخلوها ضمن رصيدهم، لذا فهم لا يسمحون بخسارة أي جزء منه، فتجدهم يهرعون مسرعين حال اندلاق أي أنبوب للنفط، فأذكر أننا رجعنا إلى المنطقة الآمنة فرحين جذلين بإتمام المهمة، كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرًا، فانطلق (وليد) وهو أحد عناصر مجموعتي يصيح في الشارع بأعلى صوته والسيارة منطلقة بسرعة عالية : (تعيش المقاومة...تعيش المقاومة)، فردَّ عليه (سلمان) من السيارة الثانية المنطلقة قُرب الأولى صائحًا بأعلى صوته: (يعيش الأمريكان... يعيش الأمريكان)،

هذا هو حالنا، كنا مع أنفسنا، نحتمي بهذا من ذاك، وندلُّ هذا على ذاك.

س: ما هي معلوماتك عن المدعو (سامي عبد الواحد نعمان).

ج: سامي عبد الواحد هو أحد الإرهابيين الهاربين من بغداد بعد أن قام بعدة جرائم هناك، ثم جاء وسكن في مدينتنا، واشتغل في ورشة لتصليح الساعات للمدعو (شلش الساعاتي)، وهو عمي، ولديه نشاط إرهابي أيضًا، شارك في ضرب الجيش والشرطة، وقد اعتقلته القوات الأمريكية أكثر من مرة، حيث ضبطتْ في الورشة عددًا من الأسلحة والأعتدة التي اُستخدمتْ في ضرب دوريات الجيش الأمريكي.

س: هل قمتَ بقتل المدعو سامي عبد الواحد نعمان؟.

ج: كلا، لم أقم بذلك.

س: هل قمتَ أو شاركتَ في عملية خطف المدعو سامي عبد الواحد نعمان؟.

ج: كلا، لم أقم بخطف المدعو سامي، ولم أشارك في ذلك، لكنني أبلغت الرائد (ساجت) في الشرطة عن نشاطات المدعو سامي الإرهابية، وهو من قام باعتقاله والتحقيق معه.

س: ما هي صلتك بالرائد ساجت وكيف تعرفت عليه، وأين تمَّ الاحتفاظ بالمدعو سامي بعد اعتقاله؟.

ج: الرائد ساجت كانت له صلة بقوات الجيش الأمريكي، وكان هو حلقة الصلة بيني وبينهم، وقبل أن ينسحب الامريكان أعطوه منصبًا مهمًا في الشرطة، وبقيت صلتي به، وكنت أزوده بالمعلومات عن الإرهابيين والمجرمين، وقد احتفظ بالمدعو سامي في سجن خاص في بناية كانت سابقًا للشرطة ثم حولها إلى دار ضيافة خاص به بعد أن انتقلت الشرطة إلى بنايتها الجديدة.

س: هل اشتركت في عملية التحقيق مع المدعو سامي؟.

ج: لا لم أشارك في التحقيق معه، وإنما كنت أحضر التحقيق فقط، وهو كان معصوب العين ولا يراني.

س: ما هي معلوماتك عن الصلة التي تجمع عمك المدعو شلش مع المدعو سامي؟.

ج : كانت الصلة الوحيدة بينهما هي اشتراكهما في الأعمال الإرهابية ضد الجيش والشرطة، حيث استخدما ورشة تصليح الساعات واجهة يخفيان ورائها نشاطاتهما ولقاءاتهما مع بقية الإرهابيين.

س: ماذا تقول عن ما يقال من أن عمك شلش كان ينوي أن يزوِّج ابنته للمدعو سامي؟.

ج : كذب، هذا كلام كذب، فابنته كانت ستكون زوجتي، لولا أنَّ المجرم سامي استغل غياب والدها وتهجم عليها وفعل فعلته بها.

س: هل كان لك أي دور في غياب والدها؟.

ج : كلا لم يكن لي أي دور، هما كانا السبب، عمي وسامي هما السبب، اما أنا فقمت بواجبي وأبلغت عنهما فقط.

س: ولمَّا وجدت ان ابنة عمك تميل إلى المدعو سامي، قمت بقتله والتخلص منه؟.

ج : كلا لم أقتله، فقط أبلغتُ الرائد ساجت عن نشاطاته فاعتقله، وحقق معه ثم أطلق سراحه.

س: لكن الرائد ساجت في اعتراف له من ضمن اعترافات كثيرة عن جرائمه واستغلاله لسلطته، يقول إنك توليتَ مسألة التخلص من سامي، وهو لا يعلم بالذي فعلته به؟.

ج : لم أتخلص منه، كان يريد أن يطلق سراحه، وكنت في البداية طلبت من الرائد ساجت أن يتولى أمر المدعو سامي باعتباره إرهابيًا فوافق، إلا أنه وبعد عدة جلسات تحقيقية قال لي إن المدعو سامي لم يعترف بأية جريمة من جرائمه، وأنه سيقوم بإطلاق سراحه، فسألته حينها : هل رأيت يومًا مجرمًا يعترف بجرائمه من نفسه؟، وطلبتُ منه أن يعيد التحقيق معه بجلسة أخيرة أحضرها أنا، ووافق على ذلك، وتمت إعادة التحقيق معه

وكنت موجودًا، ثم انصرفوا هم وتركوني لوحدي معه، كان مربوطًا، أردت أن آخذ بثأري منه على ما فعله بشرفي، ضربته، ثم جاؤوا وأطلقوا سراحه.

س: اشرح بتفصيل كيفية قيامك بضربه، وهل أدَّتْ تلك الضربة إلى مقتله؟.

ج: لقد كان لي ثأر مع المدعو سامي، فهو من جهة كان السبب في أنني لم أتزوج بابنة عمي، كما أنه اعتدى على شرفي، وكانت أفعاله تلك تستحق أن أقتله، لكنني اكتفيتُ بضربه ضربًا مبرحًا بالعصا، وبرجلي، لكنني لم أقتله، ثم أطلقتُ سراحه.

س: خلال التحقيق مع المدعو سامي تعرَّض لأنواع الضرب والتعذيب ولم تكن بحاجة إلى أن تضربه مرة أخرى، بيِّن مكان الضربات بالتحديد، وماذا كنت تريد من تلك الضربات بالتحديد؟.

ج: إن صلافة المدعو سامي وعدم اعترافه بجرائمه ونشاطاته الإرهابية، وتخلي الرائد ساجت عن مهمة التخلص منه كانت تعني إطلاق سراحه، وهذا يعني عودته لينال من ابنة عمي (أفكار) ويستدرجها مرة أخرى، فقرَّرت أن أحرمه هذا الأمر، حتى وإن أراد أن يكون هنالك ارتباط شريف بينهما، كأن يحاول أن يتزوجها، أردتُ أن أمنع أي ارتباط يمكن أن يتم نهائيًا، وأن أجعله يبتعد عنها بإرادته، فطلبتُ من الرائد ساجت طلبًا أخيرًا قبل أن يطلق سراحه، طلبتُ منه أن أبقى مع المدعو

سامي لوحدي مُدة ربع ساعة، وبعدها يقوم بإطلاق سراحه فوافق على الفور، فقد كانت سُلطته قد بدأت تتزعزع وهي على وشك الانهيار، وعندما اختليتُ به وهو مربوط الأيدي والأرجل ومعصوب العينين، ضربته بعصا غليظة بين رجليه المربوطتين بإحكام، ضربته بشدة على خصيتيه، أردت أن أميت الحياة فيه، كان لابد له من أن لا يتمكن من أن يعود إليها، أو تعود إليه، أردتُ أن أخصيه، فلا تبقى فيه حياة، يمكنه فيها أن يرتبط بأفكار أو غيرها.

س: هل أدَّت تلك الضربات إلى موته؟.

ج : كلا لم يمت، فقد تمَّ نقله إلى المستشفى وعولج هناك حتى استطاع أن يقف مرة أخرى على رجليه، لكنني تأكدتُ من أنه صار مخصيًا، ثم خرج من المستشفى.

س: ألم تكن تخشى أن يعود لينتقم منك؟.

ج: كلا، كان ضعيفًا، ولا أعتقد أنه يجرؤ على أن يقترب مني.

س: هل تعرف المصير الذي آل إليه، وهل لديك أية معلومات عن مكان تواجده الحالي؟.

ج : يقولون إنه انتحر، لكنني سمعت أنه فجَّر نفسه وسط حشد لأفراد الجيش الأمريكي قبل انسحابهم.

• • • •

شلش

(الأب)

(٢٢)

كان قلقي على ابنتي على أشدَّه في البداية، لكنني وجدتُ نفسي بعد تفكير طويل أخفِّف منه، كنتُ في قرارة نفسي متأكدًا من أنها ستجيد الاعتناء بنفسها، وستنجح في تخطي ما تمرّ به، وكنتُ راضيًا عن نفسي إذ أوصيتُ (أفكار) وصيتي الأخيرة لها قبل أن أودِّعها في أن تتحمل عِبء نفسها، وأن تكون حُرَّة في اتخاذ القرار المناسب لها، كانت هذه الوصية كما يترك أحدنا باب القفص مواربًا ليقرِّر الطير بنفسه وضعه الجديد.

فكرَّتُ بـ(سامي) وما آل إليه وضعه، كنتُ قبل أن أقرأ رسالته، أحسبه سببًا في ما آل إليه وضعنا، فوجدتُ أننا كنا سببًا في ما صار إليه من مأساة، وأعترف أنه كان صادقًا في أننا كلنا كنا ضحايا الحرية التي فُرضت علينا بقوة السلاح، التي ما أن رفضنا طريقة إدخالها إلينا، دون مراعاة لوضعنا، وإمكانية أن تصلح لنا بكُليتها، وبمنظورها، وشكلها الذي وضعوه هم.. حتى صارت سكينًا تحزُّ رقابنا.

مرَّت شهور وشهور وأنا بين تحقيق وتأجيل لمحاكمة، وبين شاهد ومزور، كنتُ قد وصلتُ إلى حدِّ الاعتراف بقتل (أفكار)، طالما أنه الطريق الوحيد لحمايتها.. لكن القاضي وفي لحظة يأس مني مع إصرار على أقوالي، أصدر حُكمًا بإطلاق سراحي بكفالة، فعاد السرور إلى نفسي وعادت عزيمتي قوية، وبدأتُ أعدُّ الساعات للقاء الأحباب. لكن اليأس تمكَّن من نفسي مرة أخرى بعدما رفض الجميع التكفل بي، حتى أخي الذي انقطع عني من مدة لم يأتي ليتكفلني، أتراه نسيني؟، أم أن الخوف منعه من أن يعيد صلاته بي؟ أم تراه في سجنٍ آخر من تلك السجون التي ملأت البلاد، وامتلأت بأهلها.

مرَّت ثلاثة أسابيع ولا أحد يسأل عني، حتى جاءت تلك اللحظة التي وُلِدتُ فيها مرة أخرى من جديد....

جاءني حرس السجن منهكًا، وكأن هناك من يطارده:
- شلش... لديك زيارة...

في البداية توقعته أخي سليمان، وما أن وصلت غرفة الانتظار، كل العيون كانت تترقبني وأنا أنقل خطواتي بينهم، دخلت عليهم، أجلسوني على كرسي بعد أن فكوا قيدي، لم يتكلموا معي، لم أرَ أحدًا ممن يمكنه أن ينتشلني.. انتظرتُ أن يدخل عليَّ من يفسِّر لي ما أنا فيه، وكانوا هم أيضًا ينتظرون... وإذا بإطلالة لم أكن أتوقعها حتى في أحلامي، شخص لم أكن أتوقع ان ألاقيه أبدًا في هذا

المكان... أطلَّتْ بهيئتها الجميلة، وبثقتها الواضحة للعيان، وغنج مشيتها، قالت :

- لقد كفلتك...

كانت جواهر بلحمها ودمها تصحب والدتي المتعكزة...

لثمتُ يدَّ أمي وقبّلتُها، جرَّتني أمي من يدي ورمتها بيدِّ جواهر، كانت وكأنها تقدِّمها لي أو تقدِّمني لها، شعرتُ حينها أنها تقذفني نحو الحُرِّية، مثل طفل تركه أهله في محلٍ للألعاب، تيقنتُ حينها أن لا حُرِّية حقيقية سوى تلك التي تُقدَّم إليك من أهلك...

وقفتُ مشدوهًا، وما أن عدتُ لوعيي، استدرتُ صوب (جواهر)، أردتُ أن أشكرها، وما أن التقت عيني بعينها، ابتسمتْ ثم سألتني:

- هاه... كيف هو حالك الآن؟..

قلتُ لها:

- أشعر أنني الآن أكثر جرأة.



المؤلف في سطور

- عبد الرحمن الهويش
- روائي وقاص ومسرحي عراقي
- عضو اتحاد الأدباء والكُتَّاب في العراق
- عضو جمعية كُتَّاب من أجل الحرية المناهضة للاحتلال
- حاصل على:

- شهادة البكالوريوس في العلوم العسكرية عام ١٩٨٨م

- شهادة البكالوريوس في الصحافة من جامعة بغداد عام ٢٠٠٠م

- شهادة الدبلوم في الصيدلة عام ٢٠٠٣م

- شهادة الماجستير في الصحافة عام ٢٠٠٧م

- صدر له:

- كذبة الحياة : مجموعة قصصية. دار الفكر اللبناني، عام ٢٠١٠م

- مغارة السلعوة : مجموعة قصصية. دار تموز، دمشق، عام ٢٠١١م

- له عدة مسرحيات منشورة، منها : مسرحية (أوان الحياة)

مسرحية (القبض على عزرائيل)

- بلا بوش : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة، عام ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني : iraq2050@gmail.com



(+2) 01288890065 / (+2) 02 27270004

www.shams-group.net